حول تراثنا

البلاغة العربية
بين
القيمة والمعيارية

الدكتور سعد أبو الرضا

حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى
١٩٨٤

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وبعد ..

فإن الحوار مع التراث لا يكون إلا بالتعامل معه ، وليس بالرفض له كلية أو الخضوع المطلق له ، وإنما نناقش قضاياه لتتجلى جوانبه ، فما كان منها صالحا يوظف فى إضاءة الحاضر لنمكن لأصالتنا من أن تؤدى دورها فى بناء حياتنا الفكرية المعاصرة فتتواصل قيم الأمس ومنجزات اليوم، من ثم يصبح الفكر إسهاما حضاريا خصبا مثريا للحياة.

من هذا المنطلق يمكن أن نتصل بتراثنا البلاغى فى بعض مصادره الأساسية .

وفى تصورى أنه لابد من محاولة تبسيط هذا التراث ، وتيسير تقديمه للناس حتى يقرأه ويتصل به غير المتخصصين، وربما كان ذلك من العوامل التى جعلتنى أضع عناوين لبعض الأفكار ، بل وأحاول الربط بينها وبين قيم الحداثة والمعاصرة ربطا بعيدا عن المغالاة ، لا يتجاوز وضع الأمور فى نصابها إحقاقا للحق وتقديرا للمتغيرات الحضارية وأثرها فى تطور الفكر.

من ثم فقد بحثت عن مدخل مناسب للاتصال بالفكر البلاغى بغية الكشف عن بعض جوانبه ، وإذا كان ما ينقص قيم البلاغة اليوم هو التناول الفنى ، المتمثل فى توظيف هذه القيم فى التعامل بها مع فنون القول المختلفة من شعر وقصة ومسرحية ومقالة وغير ذلك ، فإن البحث عن الفنية يصبح هو المدخل المناسب لتناول هذا التراث ، وأعنى بالفنية محاولات السلف

استثمار قيم البلاغة فى فهم النصوص وتذوقها . وفى مقابل هذا البحث عن القيمة الفنية كانت المعيارية ، والقياس ، والتجريد للأقسام والفروع عند من اتجه الوجهة الأخيرة ، ومن هنا كان عنوان هذه الدراسة .

وأصبح من اللازم أن يكون التناول للفكرة البلاغية فى مصادرها الأساسية بحيث يمكن أن نتناول كل المصادر فى ضوء ذلك المدخل ، وهى أمنية أسأل الله العون لتحقيقها فى المستقبل إن شاء الله ، هذا برغم أن النماذج يمكن أن تغنى عن الحصر .

وإذا كان حظ البلاغة اليوم مختلفا عن حظها بالأمس ، فإن البحث فى هذه القضية أيضا يشكل مع ما سبق المدخل المناسب لهذه الدراسة ، على أن نشير إلى بعض مجالات فنون القول التى يمكن أن تستثمر فيها قيم البلاغة العربية ، لتعود كما كانت ضواعة الأريج ومصدرا أساسيا لفهم كتاب الله العزيز وتذوق فنون الأدب المختلفة .

ثم نقدم بعد ذلك نماذج للمصادر التى تناولت الفكرة البلاغية عند السلف حتى نصل بها إلى اليوم .

وبرغم قلة ما يكتب عن البلاغة اليوم ، لكننا يمكن أن نجد من النماذج ما يكشف عن كيفية هذا التناول الذى لا يعوزه الإخلاص .

والذى لا شك فيه أنه كلما توثق اتصال قيم البلاغة بالتوظيف الفنى ، كلما نأت عن التجريد والقياس والمعيارية والعكس صحيح ، وهو موقف مطرد منذ نشأة البلاغة إلى اليوم .

ومن الحق أن نشير إلى أن السلف كانوا لا يخضعون خضوعا تاما للقياس ، بل نجد اعتدادهم بالقيمة الفنية يشكل جزءا كبيرا من تفكيرهم لا سيما فى القرون الهجرية الستة الأولى.

هكذا قدر لهذه الدراسة أن تكون على هذا النحو ، وإن كان يعوزها الحصر ، ولكنى آمل أن تكون إن شاء الله مدخلا لتصور جديد للتوظيف الفنى لقيم بلاغتنا العربية.

والله نسأل أن يلهمنا السداد والثبات ، ويرزقنا الصبر والوفاء ، ويمنحنا الإخلاص والعزيمة لأداء هذا الواجب المقدس ، إنه نعم المولى ونعم النصير.

سعد أبو الرضا محمد أبو الرضا

بين البلاغة والنقد الأدبي

بين البلاغة والنقد الأدبى

نماذج الأدب تأتى أولا ثم يكون النقد والبلاغة خلال مدارسة هذه النصوص ، ومحاولة سبر أبعادها ، وإدراك سماتها الفنية ، وعلاقاتها الداخلية التى تجلى بناءها ، مع ما قد يكون من تفسير وشرح ، سواء تعددت مستويات ذلك الشرح أو لم تتعدد .

إذن فالأدب بما له من خصائص فنية هو موضوع النقد والبلاغة . إذا صح ما سبق فلم ينحو بعضنا باللائمة على البلاغة العربية ، بل ويطالب بهجرها لأنها أفسدت الذوق ، وجففت ينابيع الأدب ، وخرجت به إلى الصنعة العقيمة[١] ؟ مع أن البلاغة تذوق جمالى ينبغى أن يدخل فى جملة ما نتعامل به من وسائل مع النصوص ، عندما نقوم النتاج الأدبى والفنى.

ولكن ربما كانت النظرة التجزيئية إلى تطور الفكر البلاغى والنقدى عند العرب هى التى دعت إلى ذلك الاتجاه ... لا سيما فى محاولة الفصل بين البلاغة والنقد، وخلال عصور الأدب المختلفةلم يكن هناك فصل بين النقد والبلاغة، هكذا مر العصر الجاهلى،وتلاه عصر صدر الاسلام، فالعصر الأموى ، وفترة من العصر العباسى دون أن يشير دارسوا الأدب أثناء تناولهم للنصوص أنهم يبحثون فى النقد الأدبى أو البلاغة وربما كانت دراساتهموتحليلاتهم للنصوص من قبيل البحث فى بلاغتها ، من وجهة نظرهم ، وهم يقصدون بذلك البحث محاولة التفسير والشرح وبيان مدى الإصابة أوالإخفاق ، وما

---

(١) النقد المنهجى عند العرب ـ محمد مندور : ط نهضة مصر ، ١٩٧٢. ص ٣٢٣.

حققه مبدع النص من غايات وأهداف وفق المثل الفنية، وهكذا يحاولون دراسة النصوص والتمييز بين أساليبها المختلفة . وأقول يحاولون ، خاضعين فى ذلك للذوق .. ، الذى تمرس بالنصوص وتثقف بالتقاليد الفنية المرعية آنذاك .

كذلك كان الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) فى البيان والتبيين وابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) فى" البديع " ، بل وعبد القاهر الجرجانى(ت ٤٧١ هـ) فى "دلائل الاعجاز" ، وأسرار البلاغة بصفة عامة ، وهؤلاء هم الثلاثة الذين ينسب إليهم بعض المفكرين نشأة البلاغة العربية(١)، ولست بذلك أسوى بين هؤلاء الثلاثة فى درجة رقى منهج كل منهم ، وإنما فقط أشير إليهم بصفة عامة ، ومن حيث نسبة ونشأة البلاغة إلى كل منهم.

وربما كان انتشار فكرة تقرير الأسس والتقسيمات هو ما حدى ببعض الدارسين إلى تخصيص البلاغة بالتقسيمات والمناهج التعليمية التقريرية منذ أبى هلال العسكرى كمايرى الدكتور محمد مندور ، عندما نسب تحول النقد إلى بلاغة لأبى هلال فى " الصناعتين"(٢)، وكما يرى ابن خلدون فى نسبة نشأة البلاغة إلى السكاكى(٦٢٦ هـ) فى كتابه "مفتاح العلوم" حيث ظهرت أقسام المعانى والبيان والبديع منضبطة مقننة ،فى صورة علمية ،بعد أن عرض لكثير منها قبل ذلك عبد القاهر ثم الزمخشرى فى صورة قوامها النظرة الذوقية المثقفة التى

---

(١) د.محمد عبد المنعم خفاجى ـ نحو بلاغة جديدة ص ٤ ، ٧ ، ٨ ،
د. شوقى ضيف ـ البلاغة تطور وتاريخ ص ٥٧ ، ٥٨ ،
د. سيد نوفل ـ البلاغة العربية فى دور نشأتها ص ١٧٠.

(٢) النقد المنهجى عند العرب ص ٣٢٢ ومابعدها.

تمرست بدراسة النصوص ، ووعت تقاليد العرب فى الإبداع ونهلت من الثقافات المختلفة واحتكت احتكاكا قويا بضروب الإبداع والإعجاز فى القرآن الكريم .

وإذا كانت تقسيمات أبى هلال العسكرى ، أو تقسيمات السكاكى أو غيرهما من المفكرين العرب الذين سبقوهم فى هذا المجال قد جاءت بناء على مدارسة للنصوص واستيعاب لمقارنات وموازنات بينها قاموا هم بها ، أو قام غيرهم بها فى مجال الأدب العربى ونصوصه ، فلماذا يعاب عليهم ذلك ، طالما أنهم يتغيون بها وصول المبدعين إلى أفضل مستوى فنى؟ وقد يكون فى ذلك تقييد للمبدع ، وتحجيم لمقدرته ، وقولبة لفكره ، لكننى أعتقد أن هذه الحدود هى الحد الأدنى الذى يجب ألا يهبط دونه أحد ، بدليل أن من يبدع محققا جمالا فنيا متجاوزا به هذه الحدود والأعراف لم يكن يعاب عليه ذلك ، بل يذكر له ويحمد له ويثنون عليه به ، وإن وجد من يعارضه ، كالعهد بكل جديد وقت حدوثه .

وليس فكرنا العربى بلجوئه إلى التقسيمات بدعا بين آداب الدنيا فى هذا الصدد ، فها هو ذا أرسطو أبو النقد الأدبى عند اليونان ، يلجأ إلى التقسيمات فى القرن الثالث ق.م وهو من يعزى إليه التأثير فى آداب العالم أجمع بما قننه للنقد الأدبى سواء فى رسالته عن الشعر أو كتابه عن الخطابة .

وكذلك فعل بوالو فى فرنسا حين قنن للألوان الأدبية المختلفة فى " الفن الشعرى " وهو مشروع النظرية الكلاسيكية فى القرن السابع عشر ، وقد تأثر بأرسطو .(٢)

---

(١) المقدمة لابن خلدون ص ٥٥٢.

(٢) د. كوثر عبد السلام البحيرى ، الاتجاهات الحديثة للنقد الأدبى . ص ١٦.

بل إن قدامة بن جعفر قد تأثر هو أيضا بأرسطو وقدم فى كتابه " نقد الشعر" تقنينات ، فلم لم يصنف ضمن البلاغيين فقط إذا كانت التقسيمات والتقريرية هى أساس تصنيف المفكرين إلى نقاد وبلاغيين ؟

إذن لم يكن السكاكى أو العسكرى بدعا فيما فعلا ، بل ربما كان هذا اللون من الفكر بحاجة إلى تقنين السكاكى وتقريريته لينضبط فى وقت تهدد تالسليقة العربية بفساد الأذواق ، وتضاءل الطبع فى نفوس العرب نتيجة عوامل عدة منها امتزاج العرب بالشعوب المغلوبة ، والصراعات الداخلية والانقسامات ، وتربص أعداء العرب والمسلمين بهم من طيبيين وتتر ، وما صحب ذلك من ضياع فكرى ، وجمود امتد منذ القرن السادس الهجرى حتى القرن الثانى عشر تقريبا ، حيث طغت فكرة التلخيصات وشروح التلخيصات ، ودار هذا الفكر فى دائرة مغلقة ضيقة ، وكان المفروض أن من جاءوا بعد السكاكى لا يحجنون أنفسهم داخل هذه الدائرة ، وهو ما تنبه إليه بعض من يتصدون لدراسة البلاغة فى العصر الحاضر على تفاوت فى درجة المحاولة .

وربما كان وجود بعض النظرات الجزئية كفكرة بيت القصيد مثلا فى الدراسات الأدبية قبل العصر الحديث ، أو المقارنات الجزئية المحدودة هو ما حدى ببعض الدارسين إلى الربط بين ذلك وبين مفهوم البلاغة ، إذ يخصونها بالبحث فى مظاهر الجمال الحسى والمعنوى فى المفردات والجمل[١] ، دون البحث فى القيمة الجمالية للنص الأدبى

---

(١) د. عبد العزيز عتيق ـ علم المعانى ـ ص ١٨.

المتكامل التى يختتم بها النقد الأدبى فى نظر هؤلاء، أويربطون بين هذا الفهم الذى يفصل بين البلاغة والنقد، وبين عدم وجود نظريات نقدية بالمفهوم الحديث[١] فى مجال دراسة الأدب قبل العصر الحديث .. وقد يكون لهم بعض الحق فى ذلك، ولكن التعميم هنا جائر ظالم ، لأن هناك من البلاغيين والنقاد العرب قبل العصر الحديث من اهتم بالدعوة إلى الرؤية الكلية للنص مثلا ، ووجوب توثق الاتصال بين أجزاء القصيدة الواحدة ، بل وتواتر ذلك بينهم ، بصورة أو بأخرى - وأكرر بصورة أو بأخرى - فها هو ذا ابن طباطبا العلوى الأصبهانى المتوفى سنة ٣٢٢ هـ فى كتابه "عيار الشعر" يتنبه إلى فكرة الوحدة فى القصيدة[٢]، وهو بذلك ينمى ويطور فكرة حسن التخلص من غرض إلى غرض فى القصيدة التى دعا إليها سابقوه ، حتى إذا جاء ابن رشيق (المتوفى سنة ٤٦٣ هـ) فى كتابه العمدة فى صناعة الشعر يدلل على فكرة حسن الخروج من الغزل إلى ما يليه، باقتباس نص للحاتمى من القرن الرابع الهجرى، حيث ينبه هذا الأخير إلى أن القصيدة بنية عضوية تتلاحم أجزاؤها حتى كأنها بيت واحد وفكرة واحدة[٣]. وأرجو ألا يفهم من ذلك تناظر رأى القدماء واتجاه المحدثين ولكننى أزعم أن فكرة الوحدة كانت معروفة موجودة، وإن لم توظف فى الأدب كما ينبغى .

---

(١) الاتجاهات الحديثة للنقد الأدبى ، ص ١٧.

(٢) محمد بن طباطبا العلوى" عيار الشعر" تحقيق وتعليق د. طه الحاجرى ود. محمد زغلول سلام سنة ١٩٥٦م المكتبة التجارية القاهرة ص ٦ ، ٧.

(٣) ابن رشيق العمدة ج ٢ ص ٩٤ - ١٠٨ - د. شوقى ضيف البلاغة تطور وتاريخ ص ١٥١.

والعجيب أن فكرة الفصل بين البلاغة والنقد تجد من يدعو إليها أويحاول تبريرها بدعوى البحث فى نشأة البلاغة والنقد الأدبى وأيهما الأصل وأيهما الفرع ، وينتهى إلى أن النقد هو الأصل والبلاغة فرع وتابعة له[١]، وما أغنانا عن البحث فى النشأة ، إنما المرجو هو محاولة الكشف عن قيمة تراثنا وإبراز استمراريته واطرادها من منظور الأصالة والمعاصرة، طالما أن فيه نفعا ، وليست جهود عبد القاهر الجرجانى مثلا ومنهجه فى دراسة العلاقات فى النظم كأساس لتقويم النص والكشف عن أبعاد المعنى المتضمن بخافية على دارس تراثنا ، حيث إن اتجاه عبد القاهر هذا هو ما تحاول النظرية البنائية فى النقد اليوم أن تحققه فى بعض جوانبها.

ويمكن أن نطلق على هذا اللون من التفكير اسم "البلاغة والنقد" طالما أن بينهما هذا الاتصال الذى أشرت إليه ،وطالما أن موضوعهما هو البحث فى الأدب بخصائصه الفنية ،وطالما أن السابقين من العرب لم يفصلوا بينهما ، بل إن مدلوليهما معا كان مقصودا عند إطلاق أحدهما ، وفكرة البلاغة كقيمة تعبيرية لم تزدهر إلا فى حضن البحث عن إعجاز القرآن، ثم صارت علما مقننا بعد ذلك ، كما أن ذيوع واشتهار تعبير " النقد الأدبى" بمفهومه الحديث ، وليد العصر الحاضر.

ولكن الأفضل أن يظل كل منهما علما أو فنا قائما مستقلا بذاته ينمو ويتطور من داخله ،وبالاستفادة من مناهج الدراسات الحديثة ، ويتعاونان مع غيرهما من العلوم الانسانية فى الكشف عن الإنسان وقيمه/ ما يبدعه.

أما أن نجعل البلاغة أو النقد يحتوى أى منهما الآخر

---

(١) مجلة الفيصل العدد (٣٦) أبريل - مايوسنة ١٩٨٠،مقال للدكتور عبده عبد العزيز قليقلة من ص ٢٨ : ٣٤- ولنفس المؤلف بحث عن كتاب الوساطة - وهو دراسة جيدة للتراث

ليختفى فيه ، فإننا بذلك نئده تماما ، ونظلمه على حساب الآخر ، ونهيل التراب على فترة مشرقة من تاريخنا.

ولايظنن أحد أننى بذلك أبتغى دفاعا عن البلاغة أو عن التراث ، وإنما أنا أدعو إلى وضع الأمور فى مكانها الصحيح دون ظلم أو إسراف فى التقدير ، وأمامنا تطور المذاهب الأدبية فى الآداب الأوروبية حيث قد مثلت تلك المذاهب روح عصرها،وأدت رسالتها قبل احتضارها، وقد ظهر فى كل منها تيار فلسفى سائد فى العصر ، وجمهور وضعه الكتاب نصب أعينهم ، وتيار فنى يلائم بين الحاجات العقلية والحاجات الاجتماعية لذلك الجمهور ، فالكلاسيكية سارت على أسس عقلية، وقد ارتبطت بشروح أرسطو ، وكان جمهورها من الارستقراطيين ، ثم قامت الرومانتيكية على أساس الفلسفة العاطفية، وكان جمهورها من البرجوازيين، ثم قامت الواقعية على أساس الفلسفة الوضعية، وكان جمهورها من البرجوازيين أو العمال (١) وهكذا ، ولقد كان التواصل قائما بينها سلبا أو إيجابا برغم سيطرة إحداها على المجال الأدبى ، ولم يمنع ذلك أيضا من أن تتجاور فى الساحة الفكرية نماذج لأجناس أدبية مختلفة تنتمى إلى مذاهب أدبية متعددة، ولهذه روادها ، ولتلك عشاقها.

وبرغم ما يمكن أن يرى من فارق بين تطور المذاهب الأدبية فى أوروبا وبين مراحل فكرنا ، لكننا يمكن أن نعتبر العلاقة بين مراحل فكرنا علاقة تطورية أيضا .. بمعنى أن المرحلة التى تنتهى مع نهاية القرن الخامس الهجرى يمكن

---

(١) د٠ محمد غنيمى هلال ـ فى النقد التطبيقى والمقارن ص ٥٧

تسميتها مرحلة الاتجاه الفنى أو المرحلة الأولى للنقد والبلاغة وتشمل مفكرين مثل ابن سلام والجاحظ وابن قتيبة والمبرد وابن المعتز وابن طباطبا والصولى والآمدى والقاضى الجرجانى والقزاز القيروانى وأبى هلال العسكرى وابن رشيق وعبدالقاهر الجرجانى وغيرهم .

وقد تميزت هذه المرحلة بالبحث فى النصوص بمناهج يغلب عليها التحليل ، والذوق المثقف ، ومحاولة استنباط الأصول بطريقة غير تقريرية ، غالبا قوامها التمرس بالنصوص والنظرة الأدبية الذوقية التى تولى الأعراف الفنية حقها من التقدير والاعتبار.

أما المرحلة الثانية فتبدأ مع القرن السادس الهجرى حتى الثانى عشر ، ويمكن تسميتها بمرحلة الاتجاه التعليمى فى النقد والبلاغة والتى تتميز بمحاولة الضبط والتقنين والتى ربما تكون قد أهملت اعتبار الذوق ، ورعاية الأعراف الفنية فى سبيل الغاية العلمية التقنينية. وتشمل مفكرين مثل السكاكى وابن الأثير والخطيب القزوينى وغيرهم.

و ما بعد ذلك حتى اليوم يمكن تسميتها المرحلة الثالثة أو مرحلة التجديد ، وتتميز بمحاولة وضع مناهج لتجديد البلاغة العربية ، وتقديم بعض الاقتراحات فى هذا الصدد . بعضها يتخذ طابع البناء وبعضها الآخر يتخذ طابع الهدم ، ولكننا فى خضم ذلك كله سوف نجد اتجاهات ، وتخطيطات مفيدة بحاجة إلى النماء والاكتمال والتهذيب ، وطبيعى أن المرحلة الأولى من هذا التقسيم قد سبقت بمحاولات نما فيها الحس البلاغى ، وأعتقد أنها فى بدايتها تناظر وتعايش المحاولات التى كان فيها الشعر والنثر العربيان يخطان دربهما ويؤ صلان لفنيتهما .

هذا بالنسبة للبلاغة ، أما النقد الأدبى الحديث ، فهو ينمو ويتطور نتيجة محاولات الغرب تنميته وتطويره ، كما أن هناك من المفكرين العرب من يحاول ذلك ، وربما كانت محاولات التطوير للنقد الأدبى وسهولة الاتصال به إلى حد ما ، هو ما حدى ببعض الدارسين إلى أن يتخذوا من البلاغة العربية هذه المواقف التى سبق أن أشرت إليها ورفضتها .

وإذا كنا نرى أن البلاغة دراسة جمالية ذوقية فنحن ندعو إلى أن نفيد منها مستعينين بعلم النفس ، وعلم الجمال وغيرهما من العلوم الحديثة ، من خلال نظرة جديدة واسعة تجعل البلاغة صالحة لأداء وظيفتها فى مجال الأدب الحديث بكل فنونه ، كما نؤكد على أهميتها فى هداية الأديب وإرشاده إلى الصياغة الفنية الموحية ، بما فى ذلك أهمية علم المعانى فى صون اللسان العربى من اللحن والخطأ فى التعبير .

وإذا كنا حين نعرف الأسلوب الأدبى نميزه عن غيره من الأساليب ، بما يبعثه فى نفوسنا من استجابات انفعالية عاطفية ، أو فنية ، لا يبعثها فينا غيره ، أفليس من البداهة بعد ذلك أن نحسب لهذه الميزة حسابها فى دراسة الأدب وتقويم نصوصه . (١)

من الخير لنا إذن أن نعود إلى هذا التراث وننظر فيه بصبر وإخلاص ومن موقف عصرى ، وسوف نجد أن فيه نفعا وخيرا لفكرنا ، ولأمتنا ، ولأجيالنا المتطلعة ، بعد أن نهمل ما فيه من أصداف عاطلة عن الدلالة خاصة فى البديع ، كما نهمل

---

(١) د. مازن المبارك ـ الموجز فى تاريخ البلاغة العربية ـ ص ١٣ .

ماعلق بها من آثار الفلسفة والمنطق وعلم الكلام والأصول وغير ذلك مما يباعد بين بلاغتنا وأهدافها الذوقية ، وغاياتها الفنية ، وما يبقى بعد ذلك فإنه يمثل بلاغتنا الأصيلة ، للغتنا وشخصيتنا الأدبية الخالدة .

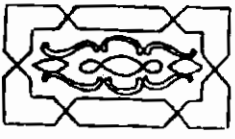

البلاغة العربية قيمة متجددة

البلاغة العربية قيمة متجددة(١)

إذا كانت الدراسات التى قامت حول الإعجاز القرآنى قد أثبتت تفوق اللغة العربية على نفسها، فإن ذلك يدعونا إلى معاودة النظر فى بلاغة هذه اللغة، مرات ومرات حتى نمكنها من أداء رسالتها المنوطة بها، بالكشف عن توظيف قيمها فى دراسة النصوص الأدبية المختلفة .

ولست أدعى أن قيم البلاغة العربية قد أحاطت بكل شىء فى تبيان إعجاز القرآن، فلقد كان القرآن الكريم هو النموذج الذى تحاول البلاغة التسامى إليه، كما أن هذه القيم لم تحط بكل شىء فى مجال الدراسة الفنية للنصوص المختلفةحسب أجناسها الأدبية المتباينة، لكنها يمكن أن تسهم فى هذه المجالات كلها بالشىء الكثير، لا سيما إذا تناولت هذه القيم بالدراسة أقلام واعية مخلصة لإسلامها وعروبتها، لتجلو عنها ما علق بها من غبار الزمن وادعاءات من لم يوءت حظا من الصبر والإدراك المنصف لهذا اللون من التراث .

ويمكن أن نشير هنا إلى بعض المجالات التى لو وظفت فيها قيم البلاغة العربية لكشف لنا هذا التوظيف عن قيمتها المتجددة فى الإبداع .. والخلق الفنى.

وفى مجال النقد الأدبى اليوم تتردد أصداء النظرية البنائية التىتعتمد ـ فيما تعتمد ـ على إدراك العلاقات بين

---

(١) نشرت هذه المقالة بمجلة الفيصل العدد(٧٢) جمادى الاخرة سنة ١٤٠٣ هـ، السنة السادسة، أبريل سنة ١٩٨٣م.

مكونات العمل الفنى ، وتتبع ما يقيمه الأديب من أنظمة داخل هذا العمل، واستثمار لكثير من خصائص الدراسات الصوتية وبنية الكلمة ، وكل ذلك بهدف الوصول إلى المعنى الأساسى ، وما يوحى به النص من معان إضافية أو ثانوية أو هامشية ، وما يمكن أن يترتب على ذلك من مستويات لمعنى النص الأدبى ذاته .. قد تثريه وتخصبه .

واعتقد هنا أن علم المعانى بمباحثه يمكن أن يساهم فى الكشف عن كثير من المعانى الإضافية للنصوص المختلفة ، بإدراك جانب من العلاقات الداخلية فى النص الأدبى عند ما توظف مباحثه كأنواع الخبر، فتتباين درجات المعنى وتأكيده نتيجة كل لون من ألوان الخبر ، حيث تختلف الصياغة باختلاف المؤكدات التى تتصل بالعبارة .

إن قيمة التقديم أو التأخير لبعض الكلمات فى التراكيب المختلفة مهمة حيث تتكشف الدلالة من خلال ذلك التقديم أو التأخير ، عندما يصبح ظاهرة عامة يلجأ إليها الأديب للتأثير بفكرته خلال عمله الأدبى كله ، وفى ضوء وحدته الشاملة .

وليس التعريف أو التنكير وما يكشف عنه من عموم أوخصوص ، وتعظيم أو تحقير،وتكثير أوتقليل ، إلا سبيلا من سبل الكشف عن المعنى وإضاءة النص من داخله ، لا سيما إذا عمقنا دلالات هذه الظواهر خلال النص كله ، لتصور الأنظمة التعبيرية للعلاقات بين الكلمات التى يمكن أن تكونها هذه الظاهرة البلاغية .

ونشير هنا إلى أن بعض كتاب القصة أو المسرحية قد يوظف شخصيات معينة فى عمله الفنى ويعرفها بالعلمية التى

تجعلها قرينة بدور معين يسهم فى بناء هذا العمل وتطوره، والأمثلة كثيرة على ذلك،ففى مسرحية نعمان عاشور "عائلة الدوغرى"(١)، نجد شخصية " عم على الطواف" الذى يرمز اسمه "الطواف" إلى مهنته حيث يقضى مصالح الأسرة طوافا كل يوم بالسوق ، ومن خلال طوافه هذا وهو حافى القدمين يعكس الكاتب عليه تطلعات طبقة الكادحين المحرومين فى مجتمعه ، والتى بها يمثل شريحة إنسانية فى هذا المجتمع ، يستهدف الكاتب لفت النظر إليها ، وتحقيق الرعاية الاجتماعية والإنسانية لها ، بل إن الآداب الأجنبية لتولى هذه الوسيلة الفنية عناية خاصة فى مجال النقد الأدبى،فهناك مثلا كتاب " روائع التراجيديا فى أدب الغرب " لكلينث بروكس ، يضم مجموعة مقالات تعتمد - فيما تعتمد عليه - فى التحليل الفنى على هذه الوسيلة، فنجد كاتبا يحلل مسرحية "أوديب " يعمد إلى الربط بين مدلول هذا الاسم المعرف بالعلمية ، وبين دوره فى هذه المسرحية حتى ليتجلى لنا أهمية أوديب بهذا المدلول اللغوى المستفاد من تعريفه عمادا لهذه المسرحية ونموها وتطورها .(٢)

وما ا لقصر إلا سبيلا آخر من سبل الكشف عن المعانى ، بما له من دلالة فى جلاء التأكيد على قضية معينة قد تشغل الأديب خلال إبداعه لنص من النصوص مسرحية أو قصة أو قصيدة أو أى فن آخر من فنون الأدب .

ويمكن أن تتجلى قيمة الإيجاز والإطناب بأنواعهما فى تبين مستويات المعنى، عندما نتتبع أثرهما خلال النص كله ،

---

(١) انظر : مسرح نعمان عاشور ج ١ ، "مسرحية عائلة الدوغرى".

(٢) كلينث بروكس : روائع التراجيديا فى أدب الغرب ، ترجمة د. محمود السمرة ، المقالة الأولى عن أوديب".

وما يترتب على ذلك من تفاوت فى الدلالة لاستخدامه تراكيب معينة دون غيرها، وإيجاد علاقات بينها كالتماثل أو التخالف أو المفارقة[١]، تتمدد خلال النص كله كاشفة عن أهداف الأديب الإنسانية التى يتغياها من وراء عمله الفنى مهما كان جنسه الأدبى -

ومجالات الحوار فى المسرحية أو القصة - وكذلك السرد فى الأخيرة - من أخصب المجالات التى يمكن أن تستثمر فى دراستها هذه القيم البلاغية بشرط ألا يقف المتلقى عند أثرها الموضعى فى التركيب ، بل لابد من تعميق ذلك على امتداد العمل الفنى كله .

وليست صياغة القصيدة الشعرية ، وجلاء علاقات بنائها إلا مجالا خصبا لتوظيف القيم السابقة التى أشرت إليها- وغيرها من قيم البلاغة العربية - فيتكشف لنا ما يتغياه الأديب من معنى بمستوياته ، وما يربطه بالواقع المعيش من علاقات على أى مستوى من مستويات الحياة فرديا أو اجتماعيا أو إنسانيا، كما تتضح عواطفه من خلال هذه الدراسة الكلية للنص .

وللصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية دور هام فى مجال الإبراز الجمالى للفكرة، ومستويات دلالاتها ، وهى من نقط الالتقاء الهامة بين البلاغة والنقد كما تعول عليها الدراسات النقدية الحديثة فى مجال الصورة الأدبية، خاصة إذا تجاوزنا الفكرة التقليدية حول الصور البيانية من حيث التركيز على أثرها الموضعى إلى استجلاء العلاقات الكلية بين

---

(١) انظر : التمهيد فى" الكلمة .. والبناء الدرامى " للمؤلف ط. دار الفكر العربى بالقاهرة سنة ١٩٨١م .

هذه الصور ، وإبراز مدى إسهامها متعاونة فى الكشف عن بناء النص وقيمته الفنية والأثر العميق والعريض لذلك فى المتلقى.

وبصورة عامة يمكن أن يكون المجاز ـ وهو قاسم مشترك بين كثير من اللغات أفسح السبل لتحليق المبدعين، حيث تتسع اللغة من خلال مجازاتها لكل التصورات المعينة على إقامة بناء فنى ممتع خصب فسيح الدلالة ، يتشكل حسب متطلبات الجنس الأدبى الذى يبتغيه المبدع ، وما يثقفه من فروق بنائية فى هذا المجال .

وبرغم ما يقال عن البديع وشكلياته ، وتكلفاته ،وما ينوء به تاريخه المطويل ، فإنه سوف يظل ، لما يستخدم منه استخداما فنيا واعيا ، أثر محمود فى تشكيل كثير من علاقات التماثل والتخالف ، والتفارق لإنجاز البناء الفنى، وعلى أساس ذلك يمكن للمبدع أن يصوغ نمو قصيدته مثلا من خلال احتكاك المتناقضات فيها كما فعل أبو العلاء المعرى مثلا فى مطلع قصيدته :

غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شادى

كما يمكن لمبدع القصة من خلال إيجاد ألوان من التماثل والتخالف أن يسمح لحدثه بالتحدر المنطقى نحو نهايته الفنية ، وكذلك فى مجال المسرحية ، عندما تصبح الشخوص بسلوكها وما تنطقه فى الحوار من تراكيب ، تكشف بتناقضاتها وتقابلاتها عن مجالات الصراع ومستوياته وصولا إلى الحل أو النهاية الدرامية .

وليست مثل هذه التوظيفات إلا سبيلا من سبل استخدامات قيم البلاغة العربية، التى يمكن أن نجد كثيرا منها مسهما فى أبنية الأجناس الأدبية ونقدها ،ولكن عدم معرفة هذه القيم البلاغية فى مصادرها ومظانها الأساسية ، وما أحاط بها من

تجاهل بقصد أو بغير قصد ، هو الذى أدى إلى عدم معرفتها ، مع أنها فى الآثار الأدبية بأجناسها المختلفة ، وما يدور حولها من نقد ، منتشرة ذائعة بحيث لا تخفى على بصير ، فهى كالهواء تقوم عليه حياتنا ولا نراه .

ثم إن علو صوت الدراسات النقدية ، وسهولة الوصول إليها قد غشى على هذه القيم ، وهو ما سبق وأشرنا إليه ، من هنا فالأمل يحدونا فى كثير من المخلصين لعروبتهم وإسلامهم ، حتى تتعاون جهودهم فى هذا المجال وليس الرجاء ببعيد ، وليس الإخلاص والمعاناة بغريب على رواد الكلمة وسدنة الحرف .

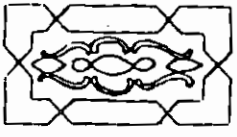

فى نشأة البلاغة وتطورها

فى نشأة البلاغة وتطورها(١)

لم تكن البلاغة فى العصر الجاهلى قاعدة تدرس ، أو قيمة فنية توظف وإنما كانت ذوقا يحس ،وأعرافا يدرك أثرها وخطرها قبل أن تدرك ماهياتها،ولقد كان هذا الحس البلاغى متمكنا فى نفوس القادرين وأذواقهم.

سجل القرآن الكريم ذلك الحس البلاغى لهم ، وهومايمكن أن يفهم من قوله تعالى:" وإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد" وقوله تعالى:" وإن يقولوا تسمع لقولهم"، فهم يملكون ناصية القول البليغ المؤثر فى المتلقى ، والتاريخ يسجل موقف الوليدين المغيرة ؛الذى كان صاحب حس بلاغى رفيع ، فاختاره قومه ليذهب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليقنعه بترك هذا الدين والتخلى عنه ،ولكنه مإن يستمع إلى شئ من القرآن الكريم ،حتى يدرك قيمته وأثره ،فيأسره القرآن الكريم بحيث يرجع إلى قومه ،ليقول لهم قولته المشهورة" والله لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس ولا كلام الجن ـ وإن له لحلاوة ،وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ".

فى هذه البيئة التى تقدر الكلمة النافذة المؤثرة ،والتى تعتز بنبوغ الشعراء والخطباء لابد أن يكون الحس البلاغى قد قطع شوطا فى الترقى، بحيث إن القرآن الكريم معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم كان إعجازا بيانيا لغويا فى جانب من جوانبه ؛تحدى هؤلاء العرب ، أن يأتوا بمثله أو بمثل شئ قليل منه ، فلم

---

(١) من المراجع التى تناولت هذه الفكرة بالتفصيل :

١ـ البلاغة تطور وتاريخ: د. شوقى ضيف . وقد اعتمدنا عليه فى رصد كثير من جوانب هذه القضية .

٢ـ البيان العربى : د. بدوى طبانة .

٣ ـ البلاغة العربية فى دور نشأتها: د. سيد نوفل.

يستطيعوا ، ولو لم يكن هؤلاء العرب على مستوى هذه المعجزة ما قام هذا التحدى ، إذ كيف يمكن أن نتحدى العاجز أو الضعيف ، أو الذى لم يبلغ شأوا بعيدا فى موضوع التحدى .

ولننظر فى الألقاب التى كانوا يطلقونها على شعرائهم نجد من بينها "المرقّش والمنخّل والمهلهل..." الخ" وكلها صفات توحى بالتزيين والتحقيق والتجويد ، وها هو ذا زهير ابن أبى سلمى يشتهر بالحوليات ، حيث كانت القصيدة تستغرق حولا كاملا بين تنقيح وتحكيك وصقل وتهذيب ، حتى قيل خير الشعر الحولى المنقح المحكّك ، وقد تتبع فريق من الشعراء طريقة زهير وتأثروا بها ،حتى صار اسمه علما على فريق من الشعراء يلتزمون نهج زهير منهم الحطيئة، وربما أخذ زهير هذا النهج عن خاله الذى كان شاعرا هو أوس بن حجر ولذلك كانت تسمى قصائدهم الجيدة بالحوليات أو المنقحات أوالمحكمات

كما كانت أسواقهم فى الجاهلية كسوق عكاظ مجالا خصبا لترقية هذا الحس البلاغى وتشكله ، فقد وجدنا من يقوم بالحكومة بين الشعراء ، كما تروى كتب تاريخ الأدب ، حيث كانت تضرب للنابغة الذبيانى قبة من أدم ويأتى إليه الشعراء ينشدونه فيحكم بينهم ، مقدرا لهذا إبداعه ودقته فى مقابل كشف عيوب غيره وأخطائه ، وهى ملاحظات بيانية بلاغية لغوية لا تشكل نظرية أو قضية فنية ، وإنما تكشف عن وجود هذا الحس البلاغى الذى أشرنا إليه .

ونجدهم أحيانا يصفون كلامهم البليغ بأوصاف تقوم على عنصر التصوير مثل قولهم" كلام كبرود العصب الموشاة" وكالديباج".

ويؤكد كل ما سبق ما خلفوه من أدب يصورفصاحتهم وحسن تأتيهم للكلام بل واستمالتهم للقلوب والأسماع، فهناك من أمثالهم " جرح اللسان كجرح اليد".

صدر الاسلام :

وما أن يشرق نور الإسلام حتى يرفد هذا الحس البلاغى بعطائه ، فيزداد كما وكيفا ووضوحا ، وكان طبيعيا أن تنمو هذه الملاحظات البيانية والبلاغية فى عصر صدر الإسلام،فالقرآن الكريم تتلى آياته صباح مساء ، وقد أخذ بألباب العرب فشرعوا فى حفظه ومحاولة معرفة أسرار تفوقه ، بل والاستفادة من نسقه التعبيرى فيما يبدعون، هذا فضلا عن أفكاره التى أخذت تسرى فى العقول وفى النفوس كماسرت فيما يصدر عن هذه العقول وتلك النفوس من فن القول.

يضاف إلى ذلك ما كان من أثر عظيم للرسول عليه الصلاة والسلام، وقد أثر عنه عنايته الشديدة بتخير لفظه ، وكانت خطبه ملء الصدور والقلوب لما لها من بلاغة وفصاحة ، حتى أثر عنه قوله : " لا يقول أحدكم خبثت نفسى ،ولكن ليقل: لقست نفسى " ، بمعنىغثت كراهية أن يضيف المسلم الخبث إلى نفسه .

وقد سار الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم فى خطبهم علىهدى من القرآن الكريم وحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولذلك تشهد خطبهم بدقة الحس البلاغى واللسن، والفصاحة ، وها هو ذا أبو بكر يعرض لرجل معه ثوب ،فيقول له أتبيع الثوب؟ وعندما يجيبه : لا ، عافاك الله يتأذى أبو بكر ، لما يوهمه ظاهر اللفظ ،إذ قد يظن أن النفىمسلط

على الدعاء ،لذلك يقول له :" لقد علمتم لو كنتم تعلمـــون ، قل : لا وعافاك الله ".

وسوف يسهم هذا الحوار فيما بعد ، فى فن معروف مـــن فنون علم المعانى هو الفصل والوصل .

وعمر رضى الله عنه يضرب الرواة مثلا لبلاغته أنه كان يستطيع أن يخرج الضاد من أى شدقية شاء.

كما كان يعجب بشعر زهير ، لأنه لا يصف الرجل إلابمـــا فيه ، ولا يعاظل فى كلامه ، وسوف تصبح المعاظلة فيما بعـــد اسما للاستعارة الرديئة المعقدة.

ويشهد كتاب" نهج البلاغة " بفصاحة على رضى الله عنه .
وهكذا يتواصل تيار الملاحظات البلاغية والبيانيـــة ويعمق ويدق الحس البلاغى حتى يأتى عصر بنى أمية .

فى عصر بنى أميـــة :

وقد كثرت الملاحظات البيانية فى عصر بنى أمية، بفضل تحضر العرب واستقرارهم ، ورقى حياتهم العقلية وتطـــور فنونهم الأدبية .

فقد ازدهرت الخطابة بجميع أنواعها ازدهارا عظيمـــا واشتهر فيها كثيرون كزياد والحجاج وزيد بن الحسين وسحبـــان وائل ، وصحار العبدى الذى يروى أن معاوية أعجب بخطابتـــه فسأله : ما تعدون البلاغة فيكم ؟ قال : الإيجاز ، فقال لـــه معاوية : وما الإيجاز ؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطىء وتقـول فلاتخطىء.(١)

---

(١) الحاظ البيان والتبيين ج ١ ط الخانجى القاهـــرة تحقيق عبد السلام هارون . ص ٩٦

وقد ظهرت الفرق وتعددت واتسع مجال جدلهم السياسي والعقيدى ، فقد كان هناك الشيعة والأمويون والخوارج، والزبيريون ، ومع نمو العقل العربى كان طبيعيا أن ينمو النظر فى بلاغة الكلام ، وتكثر الملاحظات المتصلة بحسن البيان، لاسيما وقد أصبحت الخطابة من الوسائل الإعلامية لكل حزب من الأحزاب السابقة يدافع بها عن موقفه ، ويرد على خصومه ،ويبسط حجته لإقناع غيره .

وكذلك فى مجال الشعر الذى يبدو أنه كان أكثر نشاطا لتشجيع الخلفاء له ، برصدهم الجوائز على قدر براعة الشعراء، فاشتد التنافس بينهم ، وحرصوا على تخير المعانى والألفاظ بحيث تستميل القلوب وتؤثر فى العقول.

وصاحب هذه الخصوبة التقاء الشعراء فى المساجد والأندية والأسواق وعلى أبواب الخلفاء فكثرت المحاورات بينهم من ناحية ، وبينهم وبين سامعيهم من ناحية أخرى ، وتناولت الأساليب والمعانى ، ورعاية مقتضى الحال، والارتقاء بمستويات التعبير ، وكان للخلفاء حظ واضح فى هذا المجال ، من ذلك ما يروى أنه عندما أنشد عبدالله بن قيس الرقيات عبد الملك بن مروان قصيدته البائية فيه ، وما أن انتهى إلى قوله :

يأتلق التاج فوق مفرقة على جبين كأنه الذهب

حتى غضب عبد الملك وقال له : قد قلت فى مصعب بن الزبير:

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

فأعطيته المدح بكشف الغمم وجلاء الظلم ، وأعطيتنى من المدح ما لا فخر فيه وهو اعتدال التاج فوق جبينى الذى هو كالذهب فى النضارة .

وهى ملاحظة دقيقة تتصل بما اشترطه قدامة بن جعفر بعد ذلك فى كتابه " نقد الشعر " من أن المديح ينبغى أن يكون بالفضائل النفسية لا بأوصاف الجسم .(١)

ويمكن أن تعد من الإشارات الذكية فى هذا المجال برغم سذاجتها الإشارة إلى وحدة السياق عندما قال عمر بن لجأ لبعض الشعراء : أنا أشعر منك ، فقال له : وبم ذاك ؟ قال : لأنى أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه ".(٢)

يضاف إلى ذلك أثر قيام سوق المربد فى البصرة ، وسوق الكناسة فى الكوفة ، وهما امتداد خصب للأسواق فى الجاهلية ، وقد جذبا شعراء هاتين المدينتين وكثيرين من الشعراء الذين وفدوا عليهما ، وقد تضمنت كتب الأدب كثيرا من الملاحظات البيانية التى نبتت فى هذه البيئة ، من ذلك ما يروى أن ذا الرمة أنشد بسوق الكناسة فى الكوفة قصيدته التى منها قوله :

إذا غير النأى المحبين لم يكد
رسيس الهوى من حب مية يبرح

فصاح به ابن شبرمة : أراه قد برح ، حيث لم يعجبه التعبير بقوله :(لم يكد) مما جعل ذا الرمة يغيره ويقول :

إذا غير النأى المحبين لم أجد
رسيس الهوى من حب مية يبرح

---

(١) انظر ص ١٠٩ من هذه الدراسة .

(٢) الجاحظ ـ البيان والتبيين ، جـ ١ ، ص ١١٥ ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت .

بل إن تقبيح بعض الأقوال كان من العوامل المثيرة " للنقائض " فى هذا العصر ، تلك النقائض التى يمكن أن تكون تطورا لفن الهجاء الجاهلى ، ويرجع الفضل لجرير والفرزدق ومن تصدى لهما من الشعراء فى سوق المربد وغيره .

هكذا اتسعت وكثرت الملاحظات البيانية الدقيقة التى لا شك أنها قد أسهمت فى مرحلة تالية عندما جرى تأصيل البلاغة وتدعيمها .

فى العصر العباسى :

اتسعت الملاحظات البلاغية ، فى العصر العباسى الأول لا سيما وقد أطرد تطور الحياة العقلية ، وازداد رقى الحياة الاجتماعية ، واتسعت الدولة ، وتم نقل كثير من العلوم والمعارف والحضارات - من فارسية ويونانية وهندية - وغيرها - وقد صارت ذات طابع عربى إسلامى ، بل إن كثيرين من الفرس والموالى اتخذوا العربية لسانا لهم ، وأظهروا فى ذلك براعة فائقة ، وأسهموا هم ومن يرجعون إلى أصول عربية فى النهوض بالحياة الثقافية والفكرية ، فلا غرو أن يزدهر الشعر والنثر وتتعدد فنونها بالإضافة إلى ما توارثه هذا العصر عن العصور السابقة .

ولقد أدى امتزاج العرب بغيرهم حضاريا وبشريا إلى ظهور اتجاه جديد بجانب الأسلوب القديم ، كما أسهم الاحتكاك بينهما فى ازدهار الحياة بمختلف مظاهرها .

لهذا فقد ازدهرت الملاحظات البلاغية حول فن القول ، وأصبحت قرينة بالبحث والدرس والروية بعد أن كانت تأتى معظمها عفو الخاطر .

ويكشف تعدد المدارس والاتجاهات وطوائف المفكرين عن ثراء تلك الملاحظات البلاغية التى تصدر عنهم ، برغم أنكثيرين منهم لم تكن عنايتهم بالبلاغة مقصودة لذاتها، وقد كان ذلك فى المرحلة الأولى من هذا العصر ،قبل اختصاص البلاغةبعلماء توفروا عليها درسا وبحثا وأفردوها بكتب مستقلة.

ويمكن أن نصنف تلك الملاحظات التى صدرت فى هذه المرحلة الأولى من العصر العباسى بحسب أصحابها إلى طوائف منها :

١ - ملاحظات الكتاب والشعراء.
٢ - ملاحظات اللغويين والنحويين .
٣ - ملاحظات المتكلمين .
٤ - ملاحظات المتفلسفة .

بالنسبة للكتاب :

فقد تعددت أساليب الكتاب وارتقى النثر وتطور فكان فيه العلمى الخالص ، والسياسى ، والفلسفى ، كما أصبحت هناك مدارس نثرية متميزةكمدرسة ابن المقفع ، ومدرسة الجاحظ وغيرهما ، وليس ذلك إلا دليلا على التفنن فى وسائل التعبير، والحرص على التفرد ، شكلا وموضوعا ، ويمكن أن يكون ابنالمقفع المتوفى سنة ١٤٣ هـ نموذجا لذلك ، فقد خبر أساليب اللغة، كمايعد فى طليعة من عمقوا الأسلوب العباسى الجديد الذى يمتاز بالنصاعة والدقة فى اختيار الألفاظ ، وحس استخدامها وبث المعانى المستحدثة فيها ، وقد ترجم عنالفارسية كليلة ودمنة .

وفيما نقله الرواة عن ابن المقفع عندما سئل عن البلاغة ملاحظات بلاغية هامة منها:

تعريفه البلاغة بأنها الإيجاز وهو ما سبق وعرفها به صحار العبدى عندما سأله معاوية عن البلاغة فقال الإيجاز[١] كما يشير إلى ما سمى فيما بعد بحسن الاستهلال عندما يقول: " وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك"، ويضيف إلى ذلك فكرة أخرى تتصل بالشعر وهو ما سمى بعد ذلك فى البديع برد الأعجاز على الصدور حيث يقول: " إن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته "[٢] وتلك إشارات سوف تسهم فيما بعد فى ظهور كثير من المباحث البلاغية كالإيجاز وبراعة الاستهلال ورد العجز على الصدر وغيرها نحو قول الشاعر:

سريع إلى ابن العم يلطم خده
وليس إلى داعى الندى بسريع

وكذلك كان جعفر بن يحيى كاتبا بليغا، " وإذا وقع نسخت توقيعاته وتدورست بلاغاته "[٣] كما يقول الجهشيارى .

كما نجد فى تعريفه للبيان عدة ملاحظات منها: أن يكون الاسم يحيط بمعناك، ويجلى عن مغزاك، وتخرجه عن الشركة، ولا تستعين عليه بطول الفكرة، والذى لابد منه أن يكون سليما من التكلف بعيدا من الصنعة بريئا من التعقيد، غنيا عن التأويل"[٤] وقد كان لذلك أثره فيما أوصى به البلاغيون

---

(١) انظر ص٥٦ من هذه الدراسة .
(٢) البيان والتبيين ١/١١٥، ١١٦، البلاغة تطور وتاريخ ص ٢٠
(٣) الوزراء والكتاب للجهشيارى، ط الحلبى ص ٢٠٤
(٤) البيان والتبيين ط الخانجى القاهرة ١/ ٦٠

بعد ذلك . عندما دعوا إلى الوضوح فى الأسلوب والبعد عن التكلف والتعمية والتعقيد والاستغلاق .

وليس ابن المقفع وجعفر بن يحيى البرمكى إلا مثليين لهؤلاء الكتاب الذين عنوا بصياغة النثر العربى، وبرعوا فى فنون التعبير ، بل وأسهموا فى تخريج جيل قادر من الكتاب كانوا تلاميذ لهم ، وطالما أدار هؤلاء وأولئك آراءهم فى البلاغة والبيان ، بصفة عامة .

أما الشعراء :

فقد توزعهما اتجاهان ، اتجاه يعنى بالقديم الموروث مع شئ من التطور بتأثير الرقى العقلى الذى أصاب الحياة العربية ، وبسبب المعارف الأجنبية الكثيرة ، وما أحدثته من رقة الشعر ورقاهته ، وهو اتجاه أقرب إلى المحافظة ، يلجأ إليه الشعراء عندما يضطرون إلى المديح مثلا.

واتجاه آخر يعنى فيه الشاعر بالتعبير عن ذاته مصور نفسه ، ووقع هذه الحياة المتحضرة عليها،وهنا قد يخرج الشعراء أحيانا على ما عرف به العرب من عفووقار.

وفى هذين الاتجاهين يتضح التقاء القديم والجديد ، مما دفع بالشعراء إلى محاولة الاستغلال الحى الخصب للقديم، فأثرى ذلك الملاحظات البلاغية ونشطت نشاطا واسعا ، من ذلك مثلا الموازنات التى كان يعقدها الشعراء بين معانيهم ومعانى القدماء وأساليب هؤلاء وأولئك فى الصياغة والتعبير فيروى عن بشار قوله :

ما زلت أروى فى بيت امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

حتى صنعت :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا

وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه (١)

بل إن هناك رواية أخرى تكشف عن انصراف الشعراء إلى التنافس فى حسن الصياغة ودقتها ، واختيار الألفاظ الجيدة المشرقة ، وخفة العبارة ووضوحها ،ويمثل لذلك بغضب بشار من تلميذه سلم الخاسر إذ رآه يعدو على بيته :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته

وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

ويصوغه صياغة أسلس ، وفى عبارة خفيفة أكثر وضوحا حيث قال سلم :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

ويروى أن بشار حين سمعه تألم وقال : ذهب والله ببيتى ، ورفض حضور سلم مجلسه ، وأبعده عنه ، حتى كلمه فيه بعض إخوانه فرده .(٢)

وقد كانوا ينكرون حشد الألفاظ الغريبة ، ووعورة القول، مما جعل أبا العتاهية يعيب على ابن مناذر إسرافه فى حشد الغريب فى شعره مما أخرجه فى نظر أبى العتاهية عن المحدثين،

---

(١) الاغانى ج ٣ ص ١٩٦ ، ط ٠ دار الكتب ٣/ ١٩٦

(٢) السابق ص ١٩٩ والبلاغة تطور وتاريخ ص ٢٦٠

وقصوره عن القدماء ، ونجده يسأله عن قوله : " ومن عاداك لاقى المر مريسا " قائلا له : أخبرنى عن المرمريس ما هو ، مما جعل ابن مناذر يخجل ولا يراجعه ، ولا يخفى ما فى ذلك من اتصال بمقاييس فصاحة اللفظ التى فصل القول فيها البلاغيون فيما بعد كابن الأثير وغيره .

هكذا قد ظهر اتجاهان فى مجال الشعراء والكتاب ، أحدهما يرى أصحابه وجوب اقتراب لغة الأدب من الحياة اليومية حتى يمس جميع القلوب ، ومن أنصاره أبو العتاهية ،وقد شغف بذلك الزهاد والفقهاء وأصحاب الحديث والعامة .

ويقابل هذا الاتجاه اتجاه آخر يحرص أصحابه على قوة العبارة وجزالتها وزينتها ، من هؤلاء مسلم وأبو تمام وغيرهما لا سيما فى المدائح الرسمية ، وهو اتجاه ينمى ما عند القدماء من محسنات وصور بيانية وغير ذلك من وسائل التجويد والتحسين ، وقد كان ذلك من دوافع الكتابة لدى ابن المعتز عندما حاول أن يخطط للبديع ويحدد نشأته فى كتابه "البديع ".

وأصحاب كلا الاتجاهين من الكتاب والشعراء قد أداروا بينهم من الملاحظات البيانية والبلاغية ما حاولوا به أن يذللوا المادة الأدبية القديمة لتحمل عصرهم وحياتهم ومشاعرهم المتحضرة، فاستوعبوا القديم ، ونموه نماء عصريا فى لغة منمقة زاخرة بالمحسنات ، أو لغة شفيفة لطيفة.

أما اللغويون والنحويون :

فقد ساهموا فى هذا المجال بتلقينهم الناشئة شيئا من الخصائص البيانية التى كانت تأتى عرضا أثناء تناولهم

للقضايا اللغوية والنحوية ، حيث إنهم كانوا يحترفون تعليم اللغة ومقاييسها ، كما اهتموا برواية الشعر،وشرح ما يروون ودراسته ؛ كما سوف يتضح فى تناولنا لهذا الكتاب .

وها هو ذا ابن المعتز يسترشد بكتابات الخليل بن أحمد(ت ١٧٠ هـ) فى المعنى اللغوى للتجنيس والمطابقة فى كتابه " البديع ".

أما سيبويه (ت ١٨٠ هـ) فإنه يذكر فى" الكتاب" فى أثناء الكلام على بعض قواعد الإعراب شيئا من أسرار التراكيب ووجه الدقة فى استعمالها ، بل إن من أهداف سيبويه وأضرابه فى تأليف النحو: تأليف الجمل ، وبيان ما يجب أن تكون عليه الجملة وحدها ، أو الجملة مع الجمل التى توءدى الأغراض التى تختلج فى صدور المتكلمين .(١)

ولم يكن النحو لدى سيبويه وأمثاله إلا وسيلة لفهم كلام العرب والتأليف على سمته ، ومن هنا وجدنا لديه باب اللفظ للمعانى وباب الاستقامة فى الكلام والإحالة ، وباب ما يحتمل الشعر.(٢)

وكان لذلك أثره فى تأليف علوم البلاغة لا سيما علم المعانى كما فى مثل التقديم والتأخير ، والتعريف والتنكير، والحذف ، وقد كانت هذه الملاحظات عند سيبويه إشارات دالة .

وتكثر مثل هذه الاشارات عند الفراء(المتوفى ٢٠٧ هـ) فى كتابه " معانى القرآن" عندما يبسط الكلام فى التراكيب وتأويل العبارات ، وهو يشرح آى الذكر الحكيم ، وما فى ألفاظه من تقديم وتأخير ، وإيجاز وإطناب ، كما أشار إلى

---

(١) انظر تاريخ علوم البلاغة ـ احمد مصطفى المراغى ص ١٠، ٤٤ ، ط ١ سنة ١٩٥٠.

(٢) الموجز فى تاريخ البلاغة العربية ص ٥١.

بعض الصور البيانية مثل التشبيه والاستعارة والكناية.

وقد كان يعاصر الفراء أبو عبيدة معمربن المثنى المتوفى سنة ٢٠٨ هـ وله كتاب مشهور يسمى " مجاز القرآن، لم يصنفه فى المجاز بالمعنى البلاغى الاصطلاحى[١]، وإنما ذكر فى كتابه الطرق التى كانت تستعملها العرب فى أساليبها، وبيان ما فيها من جمال فنى ودقة فى التعبير، وهو يستشهد بذلك على تفسيره وتأويله للآيات القرآنية التى يختارها، والدلالة بلفظ العموم على معنى الخصوص أو العكس، كما تنبه إلى الصورة العامة للالتفات، وإن لم يسمها باسمها الاصطلاحى وقد أصبحت تلك القضايا عناوين لكثير من الموضوعات فى فنون البلاغة الثلاثة.

لكن الأصمعى (المتوفى سنة ٢١١ هـ) المعاصر للفراء وأبى عبيدة، هو الذى اقترح للالتفات اسمه الاصطلاحى[٢] إذ روى أنه سأل بعض من كان يتحدث إليهم أتعرف التفاتات جرير ؟ فقال له : لا - فما هى ؟ قال :

أتنمئى إذ تودعنا سليمى .. بعود بشامة، سقى البشام

ألا تراه مقبلا على شعره، ثم التفت إلى البشام فدعا له، وعنه أخذ ابن المعتز هذا المصطلح بأمثلته، لكنه أضاف إليه النوع الذى ينتقل فيه المتكلم من المخاطبة إلى الإخبار، ومن الإخبار إلى المخاطبة، كما وسع من دلالته.

---

(١) انظر كتاب الإيمان لابن تيمية ص ٣٥.

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٠.

هذا وقد أشار من جاءوا بعده إلى تنبهه إلى ألوان بديعية أخرى فها هو ذا ابن المعتز فى كتابه البديع يشير إلى ان الأصمعى قد عرف التجنيس[١]، وابن رشيق يشير إلى معرفة الأصمعى للمطابقة.[٢]

ولعله مما سبق قد اتضح أن هؤلاء اللغويين والنحويين قد أسهموا فى نشأة البلاغة وتطورها بفضل مثل هذه الملاحظات البيانية والبلاغية المنثورة فى تضاعيف كلامهم وشروحهم للشعر والنثر، وتفسيرهم للقرآن الكريم وذلك حتى أوائل القرن الثالث الهجرى.

ويمكن أن نمثل لهم :

- بابن قتيبة المتوفى ٢٧٦ هـ فى كتابه "تأويل مشكل القرآن"
- والمبرد المتوفى ٢٨٥ فى كتابه "الكامل"
- وثعلب المتوفى ٢٩١ هـ فى كتابه "قواعد الشعر"

ونشير إليهم بإيجاز، فنجد أن هدف ابن قتيبة من كتابه "تأويل مشكل القرآن"؛ هو الرد على الملاحدة وأشباههم ممن يطعنون فى القرآن الكريم وينسبون إليه التناقض والاضطراب وفساد النظم، وليس ذلك إلا لجهلهم باللغة العربية وأساليبها.

من هنا وجدناه يعرض لبعض آى الذكر الحكيم مستشهدا لها بنصوص من الشعر وأقوال العرب، التى يقوم بتوجيه معناها وبيان دلالاتها من خلال المجاز والاستعارة على طريقة العرب فى الاستعمال.

---

(١) كتاب البديع ص ٢٥.

(٢) العمدة جـ ٢ ص ٧٥.

ويلاحظ أن ابن قتيبة متأثر فى هدفه وهو الرد على الملاحدة بالجاحظ لاسيما فى كتابه الحيوان ، وإن كان الأولسنيا والثانى معتزليا . كما تأثر ابن قتيبة فى الطريقة بأبى عبيدة فى كتابه (مجاز القرآن) فابن قتيبة مثلا يستخدم كلمة المجاز كما استخدمها أبو عبيدة بمعناها الواسع ، فعرض لصور منه فى القرآن ذاكرا أنها مما يدخل فى المجاز والاستعارةكما تحدث عن فنون بلاغية عدةمنها:

التقديم والتأخير ، والحذف والاختصار،والتكرار والتعريض والكناية ، وكان ذلك خلال استفاضته فى تفسير وعرض آى الذكر الحكيم .

كما عقد فصلا للألفاظ مبينا أن لها معنىأصليا واحدا وإن تعددت معانى اللفظة.

وهو بذلك لم يقدمجديدا بالنسبة لأبى عبيدة اللهم إلا ما عرف من دقة التبويب والتوسع فى الحديث عن بعض الفنون كالكتابةوأقسامها.

وفى مقدمة كتابه " الشعر والشعراء" يسوى بين اللفظ والمعنى ، وكأنه بذلك يرد على الجاحظ عندما أعلى منشأن اللفظ ، لهذا نراه يقسم الكلام إلى أربعة أقسام: ما حسن لفظه ومعناه، ومأحسن لفظه دون معناه ، وماحسن معناه دون لفظه وما ساء لفظه ومعناه .

كما نجد للمبرد فى كتابه " الكامل" ملاحظات بيانية أثناء شرحه لمايعرض من نماذج شعريةونثريةكثيرة ،مشيرا أحيانا إلى ما فيها من فنون بلاغيةكالاستعارة أو الالتفات أو الإيجاز أو الإطناب وغير ذلك . لكنه فصل الحديث فى التشبيه ، كما تعد ملاحظته فى تنوع "أضرب الخبر" أساسا لكتابات البلاغيين فى هذا الفصل .

وبرغم أن كتاب " قواعد الشعر" لثعلب يغلب عليه الطابع الأدبى وبالنسبة للشعر بالذات ، ولكن صاحبه قد تحدث عن فنون بلاغية عرضا كالتشبيه الذى أكثر من أمثلته التى أخذت عنه فيما بعد . وكذلك المبالغة التى سماها "الإفراط فى الاغراق" ، " والكناية" التى سماها" لطافة المعنى " ، كما سمى الطباق " مجاورة الأضداد " وسمى الجناس" المطابق ".

وتكلم عن الإيغال تحت اسم الأبيات الغر، وائتلاف اللفظ مع المعنى ،وغير ذلك من الفنون البلاغية، التى عرض لها فى ثنايا كتبه وجعلها أوصافا ونعوتا للشعر.

وبالنسبة لملاحظات المتكلمين فسوف نمثل لهم بكتاب الجاحظ البيان والتبيين فيما يأتى من هذه الدراسة.(١)

وبالنسبة لملاحظات المتفلسفة، فلقد برز فى منتصف القرن الثالث ـ الهجرى اتجاه عنى بشئون الفلسفة ،واهتم أصحابه من العرب بالفلسفة اليونانية والمعايير البلاغية اليونانية كأساس لتقويم نماذج الأدب العربى ونقدها مما جعل البحترى يعلن شكواه المشهورة :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغنى عن صدقه كذبه

وسوف نمثل له بكتاب " نقد الشعر" لقدامة بن جعفر فيما سوف يأتى من هذه الدراسة .(٢)

---

(١) انظر من ص ٦١ : ص ٧٦ من هذه الدراسة.

(٢) انظر من ص ٩٩ : ص ١١٠ من هذه الدراسة.

أصالة البلاغة العربية

أصالة البلاغة العربيـــــــــة

إذا كان التأثير والتأثر مشروعين بين جوانب الفكر والثقافات المختلفة ، فلماذا يؤخذ موقف بلاغتنا العربيـــة من هذه الناحية بصورة مبالغ فيها ؟ ولماذا يحسب هـــــذا التأثر عليها ؟ وهل هناك فى ذلك مايشكل تبعية لهذا الفكر أو ذاك ؟

لو حاولنا رصد هذه الظاهرة منذ نشأت بلاغتنا العربية لوجدنا أن الموقف عادى جدا ،وقد برئت البلاغة العربية مـــن هذه التبعية التى قد تلصق بها.

حقيقة كان الفيلسوف الكندى(ت ٢٥٢ هـ) معاصرا للجاحظ، وهذا الفيلسوف قد لخص كتاب الشعر لأرسطو ، وكتب فى صناعـــة الشعر والبلاغة ، وربمايكون الجاحظ قد اطلع على شئ مـــن ذلك ، نظرا لما عرف عنه من شغف بالقراءة واتصال بمختلـــف الثقافات فى عصره، لكن الباحث لا يجد شيئا فى كتابـــــيه "البيان والتبيين" ، "والحيوان" يدل على تبعية هذا الرجل لغيره وإنما يمكن أن نجد تأثرا عاما بقضايا الفكر السائد فى ذلك الوقت ، سواء العربى أم المترجم ، كنظرته إلـــــى البيان على أنه نوع من الدلالة وهى فكرة مأخوذة من المنطق(١)

---

(١) انظر د. شكرى عيادكتاب أرسطو طاليس فى الشعر تحقيق وترجمة ط دار الكاتب العربى ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ص ٢٣١ . وكذلك انظر د. توفيق الفيل المجلة العربية للعلـــوم الإنسانية الكويت العدد الرابع المجلد الأول ١٩٨١ ، من ص ٧٥: ١١٨ مقال طه حسين وقضية الأثر الهلينى فـــى البيان العربى .

وقد كان الجاحظ يعتقد أن العرب هم المختصون بالبديع والتفنن فيه ، وليس فيما كتب ما يؤكد تبعية لهذا الفكر أو ذاك ، وإنما كان الرجل يقارن بين البيان العربى وغيره ، وينتصر له ، دفعا لغارة الشعوبيين وأعداء العرب ، فكيف يكون تابعا لهذا الفكر غير العربى أو ذاك ؟

ومعروف أن الجاحظ ألف كتابه "البيان والتبيين" سنة ٢٣٠ هـ ومتّى بن يونس (ت ٣٢٨ هـ) يعد أول من نقل كتاب الشعر لأرسطو نقلا كاملا عن السريانية[١] ،هذا بالإضافة إلى ما عرف من أن ترجمة كتاب الشعر لأرسطو فى ذلك الوقت كانت ترجمة مضطربة ، لم يفهمها العرب ، ولم يتأثروا بها تأثرا يمكن أن يلحظ فيما كتبوه فى هذه الفترة ، كما أن هذا الكتاب كان يتحدث عن المأساة وهى فن لم يكن معروفا لدى العرب حتى ذلك الوقت ، ولا عند السريان أنفسهم الذين نقلت الترجمة العربية من لغتهم ، لأن اسحاق بن حنين كان قد نقله من اليونانية إلى السريانية ، ولم يكن السوريانيون أيضا يعرفون شيئا عن المسرح مما يؤكد أن ترجمتهم كانت مضطربة .

ويرغم أن كتاب الخطابة " لأرسطو كان قد ترجم إلى العربية ، وقد فهمه العرب ، لأن هذا الفن القولى كان شائعا لديهم ، بل وكان مزدهرا ، لكننا لا نجد من التأثر به ما يجعلنا نقول بتبعية العرب لليونان فى هذا الفن الذى أجاده العرب أنفسهم ، وإنما هناك استفادة عامة من حديث أرسطو عن العبارة مثلا ، لكن هذا لا يقلل من أصالة العرب وبلاغتهم فى هذا الفن .

---

(١) د. شوقى ضيف البلاغة تطور وتاريخ ط ٤ دار المعارف ص ٧٥.

وبرغم أن عبدالله بن المعتز العباسى قد ألف كتابه " البديع " سنة ٢٧٤ هـ - أى بعد وفاة الجاحظ بربع قرن تقريبا - وكان كتابه أدخل فى البلاغة عرضا وتعريفا، كما كانت ترجمة كتابى أرسطو الشعر والخطابة أكثر انتشارا،لكن ابن المعتز بنى كتابه على القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومأثور الشعر والنثر، نائيا عن المنطقية والتقنين والضبط ، معملا لذوقه الأدبى فيمايختار من نماذج لمايستحسنه من أمثلة وشواهد لقيم البلاغة العربية، وما يستقبحه منأمثلة وشواهد أخرىعلى سوء استخدام هذه القيم، بحيث يمكن أن نقرر باطمئنان خلوص الرجل للذوق العربى والفكر العربى ، ومع ذلك فنحن لا نستطيع أن نتعصب ونجرد ابن المعتز مما أسميناه عند الجاحظ بالتأثر العام بالفكر والثقافة السائدة فى ذلك الوقت ، يونانيةأم غير يونانية ، وهو تأثر مشروع لايمكن أن يدخله بأيةحال فى مجال التبعية، كما سوف نوضح عند حديثنا عن كتابه " البديع " إن شاء الله .

لكن الرجل الذى يغرينا كتابه بشدة أن نحكم عليه بالتبعية للفكر اليونانى ، هو أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧) فى كتابه نقد الشعر ، لكن النظر المتروى سوف ينصف الرجل فى هذه القضية ، برغم أن هناك اتجاها عاما بين متناولى مثل هذا الفكر التراثى يؤكد أن قدامة متأثر بكتابى أرسطو" الشعر" و"الخطابة" منطقا ومنهجا ومادة[1]، وهو اتجاه مبالغ فيه ، حقيقةيمكن أن يعد كتاب نقد الشعر

---

(١) انظر السابق ص ٢٢٣.

وكذلك انظر د. طه حسين تمهيد فى البيان العربى ص ١١ - ١٣.

من أوائل الكتب المنهجية فى هذه الفترة التى تعنى بالتحديد ودقة التعريف والتقسيم والتبويب ، لكن هذا التأثر بالمنهج يمكن أن يدخل فى مجال التأثر العام الذى لا يسم صاحبه بالتبعية ، لا سيما والرجل يتناول الفكر البلاغى العربى ، بل ويخالف أرسطو فى كثير من القضايا كمفهوم الشعر والمحاكاة مثلا ، وهو ما سوف يتضح فى تناولنا لكتاب أبى الفرج قدامة ابن جعفر إن شاء الله .

ويأتى بعد ذلك عدة كتب تراثية تتناول البلاغة العربية ، لكنها إما أن يكون جانب التحصيل فيها لدراسات السابقين أظهر من أى شىء آخر ، ككتاب "الصناعتين" لأبى هلال العسكرى (ت ٣٩٥ هـ) ، "والعمدة" لابن رشيق القيروانى (ت ٤٦٣ هـ) ، أو يظهر فيها الطابع المدرسى التقنينى ككتاب "مفتاح العلوم" لأبى يعقوب السكاكى (ت ٦٢٦هـ) .

لكن هناك كتابين مهمين بعد كتاب نقد الشعر لأبى الفرج قدامة بن جعفر ، يلفتان النظر بمنهجهما ومادتهما العلمية أما أولهما تاريخيا ، فهو كتاب "دلائل الإعجاز" لعبدالقاهر الجرجانى(ت ٤٧١هـ) وهو يمثل أصالة واضحة وسوف نتناوله فيما سيأتى من هذه الدراسة بالتفصيل ، أما ثانيهما فهو كتاب "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" لحازم القرطاجنى (ت ٦٤٨ هـ) ، ويمكن أن نعتبره امتدادا خصبا لكتابى قدامة وعبد القاهر منهجا ومادة، حيث نظم كتابه تنظيما منهجيا يذكرنا بتنظيم قدامة لكتابه ، وقد عرف حازم الشعر بأنه كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره إليها ما قصد تكريهه لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه .(١)

---

(١) انظر ص ١٠٢ من هذه الدراسة .

وهذا التعريف تطوير واضح لتعريف قدامة ، ويكمله ، كما حاول حازم أن يوظف فكرة النظم عند عبد القاهر ويتجاوز بها رؤية الجملة إلى رؤية النص كله ، وهو ما يمكن أن يعد صدى لفكرة الوحدة[1]، وإن كان لايولى للتأثيرات النحوية فى المعنى اهتماما كبيرا ، وقد تكلم فى طرق اقتباس الأفكار وانتقال فكر الشاعر فى بناء قصيدته من الأجزاء إلى الكل ، وتناول الفرق بين العبارة الشعرية والتعبير العادى، وإذا كان قد تأثر بأرسطو فى حديثه عن التخييل فقد حاول تحديد معنى التخييل ، وبيان أنواعه ، ووصف عمل الشاعر فيه بما يذكرنا بموقف المحدثين مثل كوليردج ، وهو ما يكشف عن أصالة فكره وشخصيته ، كما كان يختار نماذجه من كل العصور تقريبا ، ومن اللافت للنظر إدراكه أن ما وضعه أرسطو من قوانين غير كاف لأن يطبق على الشعر العربى .

ولعله قد وضح مما سبق أن فكرنا البلاغى كان ينزع نحو الأصالة برغم وجود تيارات أجنبية كانت تستهوى كثيرا من المفكرين فى ذلك الوقت ، وقد تركت آثارها فى هذا الفكر ولكن دون أن تقضى على هذه الأصالة ، أوتخفيها ، بل كان الاتصال بين بلاغتنا وهذا الفكر اتصالا حضاريا فيه من إثراء جوانب المعرفة وتنميتها الشىء الكثير.

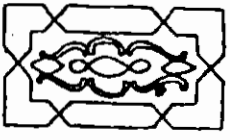

---

(١) انظر د. شكرى عياد كتاب أرسطو طاليس فى الشعر ص ٢٤٥

رحلة البلاغة العربية
عبر مصادرها الأساسية

رحلة البلاغة العربية عبر مصادرها الأساسية

لقد كان البحث فى إعجاز القرآن الكريم من أهم العوامل التى أدت إلى ازدهار المباحث البلاغية حول فن القول ، خلال القرون الهجرية الأولى ، وما زال المخلصون من المسلمين يتعهدون هذه النبتة بالرعاية والعناية، حتى صار أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى ثمارها كل حين فى رعاية البيان العربى ، وصقل الأداء الشعرى والنثرى .

وهكذا تطورت البلاغة العربية ، فقد شهدها العصر الجاهلى ملاحظات بيانية بلاغية ، لم تلبث أن ازدهرت بمجىء الإسلام ، ثم ازدادت كما وكيفا باتساع رقعة الدولة الإسلامية، وما شهدته من امتزاج حضارى بين العرب وغيرهم من الشعوب التى دخلت فى الإسلام ، كما أسهم فى هذا التطور تعدد فنون القول فى مختلف مجالات الحياة الدينية والسياسية ،والاجتماعية والأدبية .

من هنا فقد تنوعت الكتب التى تعرض لبعض المباحث البلاغية منها كتب اللغويين والنحاة مثل " الكتاب " لسيبويه (ت ١٨٠ هـ) ، وكتاب " معانى القرآن" للفراء(ت ٢٠٧هـ) و" مجاز القرآن" لأبى عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٨ هـ)وغيرها.

ومنها كتب المتكلمين "كالبيان والتبيين" للجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) الذى أولى البلاغة العربية عناية كبيرة.

ثم لا تلبث كثير من هذه المباحث المتفرقة فى ثنايا هذه الكتب أن تنضم إلى مثيلاتها المبثوثة فى تضاعيف أقوال

الكتاب والشعراء والنقاد ، وغيرهم من المهتمين بفن القول وتشكل تشكيلا آخر ـ قد يكون فيه كثير من الزيادة أوالتطوير ـ بجلية كتب ودراسات متنوعة ، بعضها تختلط فيه المباحث اللغوية بالمباحث البلاغية مثل كتاب " تأويل مشكل القرآن " لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) ، وكتاب" قواعد الشعر" لثعلب (ت ٢٩١ هـ) وبعضها تمتزج فيه مباحث البلاغة بالأدب ونقده مثل كتاب " عيار الشعر " لابن طباطبا العلوى الاصبهانى (ت ٣٢٢ هـ) ، وكتاب " نقد الشعر" لقدامة بن جعفر(ت ٣٣٧هـ)، وكتاب " الصناعتين" لأبى هلال العسكرى (ت ٣٩٥هـ)، وكتاب " العمدة" لابن رشيق (ت ٤٦٣ هـ) ، وكتاب " سر الفصاحة" لابن سنان الخفاجى (ت ٤٦٦هـ).

كما تسجل كتب الموازنات الأدبية شيئا من هذه المباحث البلاغية التى وظفت فى عقد الموازنات بين الشعراء مثل كتابى " الموازنة بين أبى تمام والبحترى " للآمدى(ت ٣٧١ هـ) ، و" الوساطة بين المتنبى وخصومه " لعلى بن عبد العزيز الجرجانى (ت ٣٩٢ هـ).

ومع هذه الدراسات كانت هناك كتب تختص ـ بصفة عامة ـ باستقلالها بدراسة المباحث البلاغية ومحاولة تطويرها معتمدة على الذوق والتمرس بصياغة العرب لأدبهم ، ومرجع أصحابها الأساسى محاولة فهم القرآن الكريم واجتلاء جوانب من إعجازه مثل كتاب " البديع " لعبدالله بن المعتز الذى ألفه سنة ٢٧٤ هـ ، ويبلغ هذا الاتجاه قمةتطوره بكتابى "دلائل الإعجاز"، و"أسرار البلاغة" لإمام البلاغيين عبدالقاهر الجرجانى (ت ٤٧١ هـ)،ومن المصنفات التى يمكن أن تمثل هذا الطور المتقدم فنيا ، " تفسير الكشاف " لجارالله محمود الزمخشرى (ت ٥٣٨ هـ) ، وله أيضا "أساس البلاغة" .

وهناك اتجاه آخر يشهد بداياته نهاية القرن السادس ومطالع القرن السابع الهجريين ، لم تتطور فيه المباحث البلاغية اللهم إلا ما كان من محاولات تقعيدها وشرحها وتلخيصها ، ويمثل ذلك الاتجاه كتب منها" نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز" للفخر الرازى (ت ٦٠٦ هـ) و" مفتاح العلوم" للسكاكى(ت ٦٢٦ هـ) و" المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر" لضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) ، و" تلخيص المفتاح " للخطيب القزوينى(ت ٧٣٩ هـ) وغيرها .

وقد استمر هذا الاتجاه حتى قبيل مطالع العصر الحديث وأصبح لزاما علينا اليوم أن نبحث فيما يجب أن يكون عليه الدرس البلاغى ، بحيث يقدم صورة مشرقة لجانب عظيم من تراثنا وفكرنا يرتبط أوثق ارتباط بقرآننا العظيم، ويجلى بعض نواحى إعجازه ، وأن توظف هذه المباحث فى الكشف عن القيم الجمالية والفكرية لما يبدعه الإنسان من فن القول أداء وتأثيرا ، للإسهام فى تكوين أجيال متمسكة بقرآنها العظيم ، واعية بدينها الإسلامى ، ومعتزة بتراثها الحضارى تثبت عطاءه ومقدرته على الاستمرار والبناء.

وسوف نحاول فيما سيأتى من صفحات أن نعرض لبعض هذه المصادر كنماذج لنجلى موقفها بيزولائها للناحية الفنية وتطلعها نحو القياس والتحديد ليتضح دورها فى تطور البلاغة العربية .

البلاغة العملية

في كتاب "البيان والتبيين" .. للجاحظ

البلاغة العملية
فى كتاب" البيان والتبيين " للجاحظ(١)

لسنا ندعى أن تناولات الجاحظ تشكل نظرية فنية متكاملة ، لكننا نعتقد أن اتجاه الجاحظ يمثل بداية مرحلة متقدمة فنيا ، وهى من أهم مراحل تطور البلاغة العربية حيث كانت قبله مجرد ملاحظات بيانية جزئية موضعية، ثم اتجه البلاغيون بعده بأكثر من ثلاثة قرون إلى التقعيد والتجريد ، بينما قد بدأ هو مرحلة متوسطة زمنيا بين هذين الاتجاهين لم يكن يعنى فيها بتقرير قاعدة ما، وإنما حاول أن يوظف البلاغة توظيفا ذوقيا عمليا ، عماده الاستشهاد بآيات كتاب الله العزيز، وحشد النصوص الأدبية المختلفة التى تكشف عن ميزة من مزايا الفصاحة أو البلاغة فى هذا السلوك البيانى او ذلك التعبير اللغوى ، وبذلك يمكن أن تتسع البلاغة لديه لكل فنون القول ، كما تنأى عن التجريد والتقريرية والمباشرة، وتحقق مستوى جيدا من التواصل الفكرى بين المبدع والمتلقى ، كما يجلى أثر القيمة فى الإبداع لاسيما ما كان منطوقا منه ، وإن كان بطريقة بسيطة.

---

(١) هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى الليثى ، من بنى كنانة بن خزيمة ،وهم بطن من مضر يقال لهم كنانة طلحة.

ويقال إنه سمى بالجاحظ لجحوظ فى عينيه.

ولد فى البصرة حوالى سنة ١٦٠ هـ وقيل سنة ١٥٠ هـ،وتوفى والده وهو صغير،فنشأ نشأة فقيرة. وبعد أن تعلم الخط والقراءة ،تلقى الفصاحة مشافهة عن العرب فى سوق المربد ، ثم اتصل بكثير من علماء عصره كالأصمعى وأبى زيد الانصارى ،وأبى عبيدة معمر بن المثنى والأخفش والنظام وغيرهم . وقد توفى سنة ٢٥٥ هـ بعد أن أصيب بالنقرس ، وسقطت عليه الكتب أثناء قراءته .

من ثم وجدناه يبدأ كتابه " البيان والتبيين" مستعيذا بالله من العى والحصر راجيا السلامة منهما كما تعوذ منهما من كانوا قبله (١)، ويحشد ما يزيد على خمسة وعشرين نصا ، تكشف عن قيمة التخلص منهما فى الكلام ، ومزايا الصمت عندما يخلو منهما ، فيصبح صمتا أبلغ من النطق، وتمثل هذه النصوص الأدبية المستشهد بها تقدير أصحابها للتخلص من هذا العيب الذى يمس فصاحة المبدع وانطلاقه فى التعبير.

ويتجاوز ذلك إلى الإشارة إلى بعض الوسائل التى قد تعين على تجاوز العى وستره كالعقل والمال(٢)، وهو بذلك يخرج عن نطاق البلاغة الخالصة ليمزجها بالواقع المعيش ، معمقا لبعدها العملى ، كما يبتعد بذلك عن جانب التوظيف الجمالى للقيمة البلاغية، لكنه فى نفس الوقت يؤكد اتجاهه العملى بالنسبة لقيم البلاغة العربية.(٣)

ثم يرقى صعدا فى التدليل بانتقاله إلى القرآن الكريم عارضا لموقف موسى عليه السلام عندما سأل الله سبحانه وتعالى

= من أهم الكتب التى تركها لنا "البيان والتبيين" و"الحيوان" و"البخلاء" وهناك كتب كثيرة له لم تصل إلينا.

(١) الجاحظ ـ البيان والتبيين ج ١ ط ٤ ،نشر مكتبة الخانجى القاهرة ص ٣.

(٢) السابق نفسه ص ٧.

(٣) نحب أن نشير هنا إلى أن كتاب" البيان والتبيين" ليس خالصا للبلاغة العربية ،لكنه مثل كثير من الكتب فى عصره موسوعى يقدم كثيرا من جوانب الحياة الفكرية مثل البلاغة والأدب ومايتعلق بالاجتماعيات والسياسة وغير ذلك ،وإن كان تقديم كل هذه الجوانب يتم من خلال نصوص قرآنية وأدبية مختلفة لاسيما الخطب .

أن يحل عقدته ليفقه الناس قوله ،واستظهاره بفصاحة أخيه هارون ،كما أشار إلى فضل الله سبحانه وتعالى فى تقويم اللسان بتعليم الإنسان البيان" الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان ،علمه البيان"، وهكذا يستمر فى تناوله لمزايا البيان ومزايا الانطلاق فى التعبير إبداعا وبلاغة ،كاشفا عن قيمة التخلص من العى والحصر،مشيرا إلى حال قريش وبلاغتها فى المنطق ولددها فى الخصومة ،متخذا أيضا من كتاب الله العزيز خير شاهد" فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد"، " وتنذر به قوما لدا".

ثم يعمق الفكرة عارضا لإحسان القول وإساءة العمل ، وحسن محادثة الضيف ،وبسط القول له موءانسة وبشرا[١] وهنا يتضح اتجاهه العملى الذوقى فى تناوله لهذه القيمة البلاغية.

لكن ما سبق ليس مطلقا ،حيث نجده يحذر من الثرثرة والتكلف والتفيهق والتقعر[٢]، وغير ذلك من العيوب التى تحط من قدر المتحدث وحديثه معا ،كل هذا من أجل الوصول بالكلام إلى مستوى البلاغة والفصاحة والكشف ،وتحقيق التواصل المرجو بين المبدع والمتلقى،ومن هنا يتضح تناوله لعملية الإبداع صياغة ونطقا وهذا مانعنيه بالاتجاه العملى الذوقى.

ثم يقدم مثالا عمليا واقعيا على الطلاقة فى الكلام والتخلص من عيوب النطق كاللثغة ،متخذا من واصل بن عطاء نموذجا لذلك ،حيث استطاع التخلص فى كلامه من حرف الراء[٣]

---

(١) السابق نفسه ص ١٠.

(٢) انظر السابق نفسه ص ١٣.

(٣) السابق نفسه من ص ١٤ إلى ص ٢٢.

هو أبو حذيفة واصل بن عطاء المعتزلى، المعروف =

التى كان يلثغ فيها،فهيأ نفسه للمهمة التى أرادها لنفسه كداعية مقالة،ورئيس نحلة، وتمكن من الاحتجاج أمام خصومه.

كما تمكن من الخطب الطوال فى سهولة مخرج ، وجهارة منطق وجزالته.(١)

ويقدم الجاحظ فى كتابه هذا عدة تعريفات للبلاغة عند أمم مختلفة كالفرس واليونان والروم والهنود، تتجاوز حدود

= بالغزال ،وكان يجلس إلى الحسن البصرى ،وعندما اختلفت الفرق حول مرتكب الكبيرة،ورأى الخوارج يحكمون بكفره ،بينما رأت الجماعه أنه موءمن فاسق، خرج واصل على الفريقين ،ورأى أن مرتكب الكبيرة من هذه الأمة لا موءمن ولا كافر بل هو بمنزلة بين المنزلتين ،ثم اعتزل استاذه الحسن البصرى ، وربما كان ذلك من أسباب تسمية المعتزلة بهذه التسمية.ويقال إنهم سموا بالمعتزلة لأنهم كانوا يقفون فى السياسة مواقفا محايدا.

(١) والمعتزلة طائفة من المتكلمين الذين أخذوا ينقسمون فرقا منذ أواخر القرن الأول للهجرة ،وقد علا شأن الخطابة والمناظرة والجدل بينهم ،كما كثر حديثهم فى القضايا البلاغية التى تدعم مواقفهم فى هذه النواحى وتتصل بالبحث البلاغى كقوة الحجج ووضوح العبارة ودقتها ،وانطلاق المتحدث ، ورعاية المقام.
ويبدو أن المعتزلة كانوا أسبق من غيرهم من المتكلمين فى هذا الجانب العملى من فن القول ، لاتصالهم بالثقافات الأجنبية ، فقوى موقفهم فى الدفاع عن الإسلام أمام أعدائه ،وأمام فرق المتكلمين الأخرى عندما يختلفون حول قضايا الدين.
وقد اهتموا بمسائل البلاغة والبيان ،لاتصالها بما كانوا ينهضون به من وعظ الناس ،وقد عنوا بجمع الشباب =

التعريف من جمع ومنع لتكشف عن قيم أصيلة فى البلاغة العربية، تعنى باستقامة العبارة ووضوحها فى دلالتها على المعنى، ورعاية الموقف وما يتطلبه من حسن الإشارة، وبراعة اللمح مثل :

" قيل للفارسى : ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل.
وقيل لليونانى: ما البلاغة ؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام .
وقيل للرومانى: ما البلاغة؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة.
وقيل للهندى: ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة .

وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة.

ثم قال : ومن البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة ، أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة ، وربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ فى الدرك، وأحق بالظفر .

قال : وقال مرة : جماع البلاغة التماس حسن الموقع ، والمعرفة بساعات القول ، وقلة الخرق بما التبس من المعانى أو غمض ، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر".(١)

وما تتضمنه هذه التعريفات يدور حول قضايا بلاغية رئيسة تعنى أول ما تعنى ببناء التركيب وتربط بينه وبين

= حولهم وتعليمهم أساليب الوعظ ، وإفحام الخصم ، والخطابة بصفة عامة .

(١) البيان والتبيين - ج ١ ص ٨٨.

الوظيفة الدلالية التى صيغ من أجلها، والكشف عن أثر هذا التركيب بخصائصه الجمالية فى المتلقى ، وإحداثه الأثر المرجو منه ونفعا ، من هذه القيم الفصل والوصل ، وتصحيح الأقسام ، وحسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الإطالة وهو ما يلتقى مع باب الإيجاز والاطناب ، والكناية ، وهو اتجاه طيب حبذا لو اتسع ليشمل النص كله ، فيرقى به إلى مصاف الفن الرفيع ، وربما كان اهتمام السابقين بالعبارة كجزء من النص دليلا على الاهتمام بالنص كله انطلاقا من أجزائه ومكوناته .

وبرغم أن كثيرا من هذه القيم السابقة لم يكن قد اتخذ شكله العلمى الفنى ، لكنها ذات دلالة واضحة على الاتجاه العام الذى كان يتغياه الجاحظ من دراسته للبلاغة ،وهو التوظيف العملى الذوقى بالكشف عن قيمة البلاغة وأثرها فى فن القول .

ومهما كان من ابتسار فى هذه التعريفات فإن الجاحظ لم يدع لها أكثر من طبيعتها ومضمونها ، ولعلنا ندرك أن التأليف فى ذلك الوقت لم يكن يتخذ منهجية عصرنا اليوم ، فشتان فى هذه الناحية بين منتصف القرن الثالث الهجرى والقرن الخامس عشر ، نقول هذا لأ ن هناك من يتناول هذه التعريفات متجاوزا طبيعة عصرها ومتغيراته [1]، ونحن لا نبتغى دفاعا عن تراث ظل إلى اليوم ، يسهم فى النتاج الفكرى حول فن القول سلبا أو إيجابا ، وإنما نريد أن ينظر إلى هذا التراث فى جمه

---

(١) انظر د٠ رجاء عيد : فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور ط ١ منشأة المعارف بالاسكندرية سنة ١٩٧٩م ص ٧ : ١٥٠

الطبيعى وظروف عصره ، وأن نكون على مستواه ، ومما لا شك فيه أن التناول الكلى للنصوص فى ضوء مثل هذا الفكر شىء نفتقده عند أصحابه ، لأنهم بدءوا بالجزء أو الجملة، وبرغم تناولهم - كما سوف يتضح - للبناء تناولا نظريا، إلا أن التطبيق العملى لهذه الناحية مفتقد تماما ، ومن هنا فإن هذه مسئوليتنا نحن اليوم .

ومن بين الأخبار التى يذكرها الجاحظ فى كتابه ما يتعلق بصحيفة الهند التى قدمها معمر أبى الأشعث رأس فرقة المعتزلة إلى التراجمة، وكان قد دله عليها بهلة الهندى أحد الأطباء الذين اجتلبهم يحيى بن خالد البرمكى للرشيد .(١)

وهذه الصحيفة تتحدث عن شروط بلاغة الكلام والمتكلم فالخطيب يجب أن يكون هادىء النفس حتى لا يصيبه الدهش فيعقد لسانه ، وعليه أن يتخير لفظه ويلائم بين مستوى كلامه ومستوى مستمعيه فلكل مقام مقال. وإذا ما تعمق معانيه يجب أن يحرص على الوضوح وألا يسرف فيغرب ويلغز، كما ينصحه بألا يسرف فى تنقيح اللفظ فيشغله ذلك عن المعنى، وعليه ألا يبالغ فى تقدير كلامه والثقة ببلاغته ، حتى لايقعد به ذلك عن طلب الإحسان ، كماتنصح الخطيب ألا يبالغ فى اتهام كلامه حتى لا يصيبه ذلك بالعجز .

ولا شك أن الدافع للجاحظ على إيراد أخبار هذه الصحيفة هو محاولة التوظيف الذوقى العملى لما تتضمنه من قيم بلاغية،تربط بين أطراف عملية الإبداع الثلاثة المبدع والمتلقى والنص ، بل وتهتم بالظروف النفسية الملابسة لكل

---

(١) البيان والتبين ج ١ ص ٩٢.

طرف . وربما كان اتجاه الجاحظ كمتكلم معتزلى من العوامل التى دفعته إلى الاهتمام بكل قيمة فنية تدعم الخطيب وخطبته . وتقول هذه الصحيفة :" أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولاالملوك بكلام السوقة ...."(١)

ومن اللافت للنظر أن قيم الخطابة الفنية التى اهتم بها الجاحظ يمكن أن تكون عامة لكل فنون القول ، من حيث توجيه الصياغة وجهة فنية كالدقةفى استخدام الكلمات ، والحرص على وفائها بالمعنى حيث تقول هذه الصحيفة :" ومن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا ، وتلك الحال له وفقا،ويكون الاسم له لا فاضلا ولا مفضولا ولا مقصرا ، ولا مشتركا، ولا مضمنا ، ويكون مع ذلك ذاكرا لما عقد عليه أول كلامه ،ويكون تصفحه لمصادره ، فى وزن تصفحه لموارده .."(٢)

وقد روى الجاحظ أيضا فى كتابه هذا صحيفة بشر بن المعتمر وهو من كبار المعتزلةوهذه الصحيفة(٣) من خير ما أثر عنهم فى مجال البلاغة ، حيث تحاول أيضا الربط بين أطراف الإبداع الثلاثة، كما تهتم بالظروف النفسية للمبدع والمتلقى ، وبرغم تناول كثير من المفكرين لها ، إلا أن فيها جانبا هاما قلما يلتفت إليه احد ، وهو اهتمامها بالمعنى اهتماما كبيرا ، بحيث يجعلنا نعيد النظر فيما ينسبه كثير

---

(١) السابق نفسه ، ص ٩٢ - ٩٣.

(٢) السابق ونفس الصفحة .

(٣) السابق نفسه ص ١٢٥.

من الباحثين للجاحظ ، من أنه صاحب مدرسة اللفظ ، لأن اهتمامه بهذه الصحيفة وإبراز عنايتها بالمعنى تجعلنا لا نسلم باهتمام الجاحظ باللفظ فقط ، حيث تقول الصحيفة كما سجل الجاحظ فى كتابه :" والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة ،وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معانى العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة ، مع موافقة الحال ، ومايجب لكل مقام من المقال"(١)، إلى غير ذلك مما يعد تشريعا لنظرية المعنى ، التى سوف تتجلى أركانها فى التفكير البلاغى بعد ذلك .

وفى مقدمة هذه الصحيفة ينصح بشر بن المعتمر كل أديب أن لا يقبل على عمله إلا إذا كان متهيئا له كل التهيؤ ،حتى تنقاد له الأفكار ، والألفاظ فى طبع ودون تكلف حيث يتمكن من اختيار اللفظ الملائم ويبتعد عن الغريب المعقد، الذى يستهلك المعانى ويهجن الألفاظ .

وهكذا تؤكد هذه الصحيفة فى مقدمتها على وجوب التهيؤ النفسى للمبدع قبيل ممارسته للخلق الفنى ، حتى ينقاد له ، وينأى عن التكلف ، والمعانى المستهلكة .

ثم يشير إلى مراتب من يصطنعون الأدب :

فأولاها : منزلة البليغ التام : وهو الذى يكون لفظه رشيقا ، ومعناه واضحا عند العامة والخاصة ، وقيمة هذا المعنى فى موافقته الحال ، فلكل مقام مقال ، ومن يستطيع أن يفهم العامة معانى الخاصة فى لفظ ملائم واقتدار فذلك هو البليغ التام .

---

(١) السابق نفسه ص ١٣٦ .

أما المرتبة الثانية: فتختص بمن لا تسعفهم طبائعهم بالألفاظ الملائمة ، والقوافى المناسبة الجيدة دون قلق أو استكراه ، فمثل هؤلاء أجدر بهم ألا يستكرهوا الألفاظ ، ويتكلفوا القول ، بل عليهم أن ينتظروا بياض نهارهم وسواد ليلهم ، ثم يعاودوا نشاطهم واستعدادهم ومحاولتهم الكتابة فى وقت الإجابة والمواتاة، فإن كانوا على حظ من الطبع والاقتدار أجادوا وأبدعوا ، فتلك طبيعتهم .

ووراء ذلك مرتبة ثالثة : وتختص بمن لا تواتيهم المقدرة مهما أجهدوا أنفسهم ، ومهما تهيأوا للقول ، فهم لا يقعون إلا على كل لفظ مستكره مرذول ، وخير لهؤلاء أن ينصرفوا عن صناعة الأدب ، ويتحولوا إلى ما يناسبهم من الصناعات .

وهذا المنحى برغم تقريريته ومعياريته ، لا يكاد يتجاوز الواقع النفسى العملى للإبداع والخلق الفنى .

ويؤكد بشر على رعاية مقتضى الحال ،والموازنة بين أقدار المستمعين وبين ما يوجه إليهم من قول ، ويوضح جانبا من ذلك فيبين أن الخطيب من أصحاب علم الكلام إذا خاطب أوساط الناس كان عليه أن يتحاشى فى خطابه ألفاظ المتكلمين الخاصة أو الاصطلاحية لأن الجمهور لا يفهمها ، فإذا استخدمها الخطيب فقد يبدو ملغزا ، ولكن مثل هذه المصطلحات إنما تستخدم فى مجالها ومع أربابها .

ومن كلتا الصحيفتين ـ صحيفة الهند ، وصحيفة بشر ـ وتناول الجاحظ لهما يتضح لنا فى جلاء موقف المعتزلة فى محاولتهم استغلال ملاحظات العرب والأجانب فى البلاغة للوصول

إلى أمثل سبل البلاغة وأصولها التى تعينهم على أداء مهمتهم الوعظية الجدلية.

وقد نمى الجاحظ كثيرا من المباحث التى عرض لها فى مثل تلك الصحف، لا سيما صحيفة بشر السابقة كفكرة المطابقة التى عممها، ولم يقف بها عند المتكلمين فقط مثلما فعل بشر. كما يتوسع فى الحديث عن الإطناب والإيجاز ومواضعهما، فالإيجاز لديه ليس مجرد قصر الألفاظ وقلة كميتها، وإنما يعنى به مساواة الألفاظ للمعانى دون زيادة، وكذلك لا يكون الإطناب باتساع القول، فقد يكون الكلام قصيرا ومع ذلك يعد مطنبا، فالعبرة بالمواقف والمقامات، وهذا المعنى تأكيد لاتجاه الجاحظ البلاغى العملى الذى نعنى بعرضه هنا، لذلك ينتهى إلى أن الإيجاز ضربان: لون يدخل فى البيان وهو البليغ، وآخر يفسد العبارة بمايحدثه فيها من الغموض والاستغلاق، من ثم يحذر من الإسراف والمبالغة فى تصفية الكلام، فقد يؤدى ذلك إلى التكلف، لذا نراه يفرق بينه وبين التنقيح، فالأخير يعنى تخير اللفظ الجيد، أما التكلف، فيعنى اغتصاب الألفاظ وقهرها، فيتضح فيها الاستكراه والتعقيد اللذان يؤديان إلى غرابة الألفاظ، وقد أنكر الجاحظ كل ذلك انكارا شديدا كما أنكر اغتصاب القوافى فى الشعر.(١)

وقد هدته بصيرته، كما ألهمته صحيفة بشر إلى أن لكل أديب معجما لغويا خاصا يردده فى كلامه، كما لاحظ أن هناك ألفاظا لمعان فى القرآن غالبا ما تأتى مقترنة كالصلاة والزكاة مثلا، والبحث فى معجم الأدب اللغوى من القضايا

---

(١) السابق نفسه ص ١٣٨.

التى نعول عليها الآن فى تحديد مستويات المعانى للنص ، كما تكشف عن العلاقات الداخلية التى يقيمها الأديب فى بنائه فكريا وجماليا .

كما تحدث عن ملاءمة اللفظ للمعنى ، وقد دعاه ذلك إلى الحديث عن جزالة الألفاظ وفخامتهاورقتها وعذوبتها، وإلى الحديث عن حروفها ، ملاحظا أن منها ما لا يقترن بعضه ببعض فى الكلام ،وكذلك بالنسبة للكلمات ذاتها ، فمنها ما يتنافر فى التركيب ومنها ما يتلاءم ولا يثقل ، وغير ذلك مما ساعد البلاغيين فيما بعد على الاهتداء إلى شروط فصاحة اللفظ والتركيب ، وهى لمسة فنية ذات أثر واضح فى تحليل النصوص الأدبية والكشف عن مكوناتها الفكرية والجمالية .

وقد وضح اهتمامه بأصوات الكلام حيث نراه يتحدث عن السجع والازدواج والتقسيم الجيد وغيرها من فنون البديع ، كما يشير إلى أثرها فى نفوس السامعين ، حتى إن ذلك يمكن أن يكون مما أعان ابن المعتز على تأليف كتاب " البديع " لا سيما فى " المذهب الكلامى" الذى نص ابن المعتز على أن الجاحظ صاحب هذه التسمية ، كما سوف يتضح .

وقد تنبه الجاحظ إلى قيمة الترادف ، فأنكر أنتكون دلالة الالفاظ المترادفة واحدة ، فلكل لفظة داخل التركيب دلالتها الخاصة ، وهى ملاحظة مهمة فى تشكيل الصياغة الأدبية.

لهذا وجدناه يكثر من الحديث عن الصياغة الجيدة ، ودقة التأليف وجمال النظم فهو القائل :" المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة

الماء ، وفى صحة الطبع وجودة السبك ، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير."[١] وهكذا نراه يعلى من قيمة النظم ويرد إعجاز القرآن الكريم إليه[٢]، وتلك ملاحظة مهمة سوف تسهم فى نمو هذا الاتجاه الذى يبلغ ذروته عند عبدالقاهرالجرجانى فىالقرن الخامس ، وربما كان هذا القول هو الذى دعا بعض المفكرين إلى نسبة الجاحظ إلى مدرسة اللفظ ، لكن الربط بين بداية هذا الحديث ونهايته ، يكشف عن موقف الجاحظ من العناية بالشكل والمضمون معا ، ممتزجين لا ينفصلان.

هذا وقد تنبه الجاحظ إلى ما سمى فيما بعد بأسلوب الحكيم ، كما أشار إلى الاحتراس ، والهزل يراد به الحد.

ومما يذكر للجاحظ أيضا حديثه عن الصور البيانية كالتشبيه الذى أكثر من ذكره بما يقرب من معناه الاصطلاحى[٣] كما تحدث عن الاستعارةوإن كان حديثه عنها وعن غيرها من الصور البيانية بصفة عامة أوفى كتابه الحيوان ، ولقد كان استعماله لكلمتى الحقيقة والمجاز بنفس استعمال البلاغيين المتأخرين لهما ، ولعلنا نلاحظ أن فكرة الجاحظ هنا برغم بساطتها متقدمة فنيا ، حيث يعول علىأهمية " التصوير " فى الشعر ، وفكرة التصوير هذه عمادها الصور البيانية من مجاز وتشبيه واستعارة ، وبرغم بساطة تناوله لها لكنها تؤكد توظيفه العملى الذوقى لقيم البلاغة العربية ، حيث إن هذه الصور إنما تستخدم للتأثير فى المتلقى بالفكرة بصفة عامة فى مجال فنون القول ، وفى الخطابة بصفة خاصة، وهو ما يؤكد رأينا فى هذا الكتاب .

---

(١) الحيوان – جـ ٢ ص ١٣١.

(٢) السابق – جـ ٤ ص ٩٠.

(٣) السابق .

وبعد حديثه فى السرقات الشعرية من الخطوات الرائدة التى استفاد منها من كتبوا فى هذا الموضوع .

ومما سبق يمكن أن يتضح دور الجاحظ فى تطور البلاغة العربية كما يصوره كتابه البيان والتبيين ، حيث حشد فيه كثيرا من الملاحظات البيانية والبلاغية ، سواء ما اهتدى إليه بنفسه أو ما نماه بعد استنباط غيره له ، هذا فضلا عما فى كتابه " الحيوان".

ولئن كان الجاحظ قد عنى بشىء من التحليل للصور البيانية وبعض آى الذكر الحكيم ، فإن ملاحظاته لم تكن فى شكل قوانين محددة بالتعريفات ، ولكن أمثلته من الغناء والتوضيح بحيث إنها قد هدت لاحقية إلى كثير من الفنون البلاغية ، وربما كان هذا الذى جعل بعض الدارسين يعدونه موءسسا للبلاغة العربية.(١)

ويتضمن هذا الكتاب إشارة مبتسرة طريفة إلى تميز بعض المبدعين بالمقدرة على" الحكاية" التى سوف تصبح عنصرا من عناصر فن القصة، حيث يعدد بعض الخطباء المشهورين فى نظر الرواة ، ثم يعلق على قولهم مبينا أن من بين هوءلاء الخطباء القاص الجيد ، والواعظ البليغ ، وذو المنطق الوجيز(٢)، وهى ميزة تربط بين القول وحالة المتلقين .

ولا ندعى للقيم التى يتناولها الجاحظ فى أقواله أو أقوال غيره أنها تمثل تنظيرا فنيا ،لكنها فى نفس الوقت يمكن أن تسهم فى الأسس الفنية لمثل هذا التنظير الذى يجمع بين الأصالة والمعاصرة ،وتكوين موقف فنى يتعامل من خلاله مع النصوص الأدبية تفسيرا وتقويما..

---

(١) د. شوقى ضيف ـ البلاغة تطور وتاريخ ص ٥٧ ، ٥٨.
وكذلك سيد نوفل ـ نشأة البلاغة العربية ص ١٥٨.

(٢) البيان والتبيين ١/ ٣٥٤.

أصول القيم البلاغية

في كتاب "البديع"

(لابن المعتز)

أصول القيم البلاغية
فى كتاب البديع (١) ـ لعبد الله بن المعتز (*)

الاتجاه الفنى لدى ابن المعتز:

يمكن أن يمثل هذا الكتاب طلائع الحركة الفكرية لإرساء أصول البلاغة العربية ، ومحاولة رصد بدايات التوظيف الفنى لهذه الأصول ، لأن ابن المعتز فى هذا الكتاب قد رجع إلى كثير من النصوص التى تعد هذه القيم والأصول دعامات فنية لهـا ، ولذلك استخدم أمثلة من هذه النصوص كشواهد على هذه الأصول ، بالإضافة إلى رجوعه إلى هذه الأصول ذاتها عند كثيرين ممن تناولوها قبله بقصد أو بدون قصد ، وقد أشار هو فى كتابه إلى شيء من ذلك ، كحديثه عن المذهب الكلامى ، والتجنيس

(*) هو عبد الله بن المعتز العباسى ، ولد سنة ٢٤٧ هـ تقريبا فى عصر ازدهرت فيه الحركة الفكرية ، وقد نشأ فى بيت الخلافة بسامرا ، واتصل بكثير من علماء عصره وتتلمذ عليهم لغويا وأدبيا وفنيا كابن قادم وابن السكيت والزبير بن بكار والضبى النحوى ، وابن هبيرة الكوفى والمبرد وثعلب .
(انظر: د. محمد عبد المنعم خفاجى ابن المعتز وأثره فى الأدب والنقد والبيان من ص ١ : ص ٢٥) وقد توفى سنة ٢٩٦ هـ ، وله من الكتب طبقات الشعراء ، وأشعار الملوك وديوانه فى جزئين طبع بمصر سنة ١٨٩١م ، وبيروت سنة ١٣٣٢ هـ.

(١) عبد الله بن المعتز ـ كتاب البديع ، نشر وتعليق اغناطيوس كراتشقوفسكى .

مثلا . فأشار إلى الأصمعى والخليل والجاحظ.(١)

ويمكن أن يتضح اتجاهه الفنى - برغم بساطته - من اتخاذه كلمة " البديع " بمعنى كل جديد طريف عنوانا لهذا الكتاب ، إذ لا شك فى أن فنية القيمة المتناولة، وأثرها فى جودة العبارة كانت نصب عينيه وهو يحاول جمع هذه الأصول ، وتصنيفها ، وهو جمع وتصنيف بعيد تماما عن المنطق ومعياريته وتجريديته ، كما سوف نراه عند السكاكى مثلا ، ولا أدل على ذلك من ذكره لعبارات كنماذج يتضح فيها التوظيف الجيد لهذه القيمة المتناولة ، وعبارات أخرى تكشف عن التوظيف المعيب لهذه القيمة ، فالأساس إذن فنى وليس معياريا.

كما يكشف تصنيفه عن أصالته فيما يقدم من بديع ، إذ لا نجد دليلا واضحا قويا على تأثره بأرسطو لا فى التصنيف ولا فى العرض.

هدفه :

وقد استهدف بهذا الكتاب أن يثبت للمحدثين فى عصره أن ما يسمونه بديعا ليس من اختراعهم حيث إنه موجود فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وكلام الإسلاميين والجاهليين من قديم ، ولا فضل لهم إلا أنهم أكثروا من استخدام فنونه .(٢)

كما يرفض ابن المعتز الإسراف فى التجديد واستخدام البديع ، متخذا من أبى تمام دليلا على دعواه حيث يبين أنه

---

(١) السابق نفسه ص ٢٥ ، ٣٦ ، ٥٣.

(٢) السابق نفسه ص ٥١.

وهو مثلهم الأعلى قد أخطأه التوفيق فى أحيان كثيرة لتكلفه ذلك البديع ، مما قد يجعل قارئه يمله مهما أحسن وأتى بالنادر الطريف ، مثله فى ذلك كمثل صالح بن عبد القدوس فى الإكثار من الحكم والأمثال ، فلو فرقها فى شعره لأصاب وسبق أهل زمانه ، لكن الإكثار يعقد الكلام.(١)

وهذا الموقف من ابن المعتز يؤكد ميله إلى التمسك بالطبع والاتجاه الفنى فى توظيف الأصول التى جمعها.

وقد أشار ابن المعتز فى بداية كتابه إلى أنه قد يفكر إنسان فى الكتابة فى مثل هذه الفنون فيما بعد فيضيف فى أبوابه أو يغير فى تسمياته فله ما أراد وقد حدث ذلك فعلا ، فكثرت الأبواب والتسميات وإن ظلت أكثر تسميات ابن المعتز ثابتة .(٢)

ويبدو أنه كان بعيد النظر ، ومدركا لأثر الولوع بمثل هذه الأمور إذ كشفت القرون التى تلت قرن ابن المعتز عن تبارى كثير من الأدباء فى الإكثار من هذه الفنون كثرة قضت على كل قيمة لها ، بل أصبحت البديعيات مجالا لانتقاد البلاغة العربية ، هذا برغم تحذير ابن المعتز وغيره من الإسراف فى توظيف مثل هذه الفنون بكثرة ، وتأكيدهم على وجوب الإقلال منها ، والتزام الطبع فى ذلك ، والبعد عن التكلف .

دور ابن المعتز :

ويحدد ابن المعتز دوره الريادى فى مجال البديع بقوله : " وما جمع فنون البديع ولا سبقنى إليه أحد(٣)

---

(١) السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٢) السابق نفسه ص ٣٠.

(٣) السابق نفسه ص ٥٨.

" فهو أول من جمع فنون البديع ".

كما يشير إلى أن كلمة" البديع " كانت تدور قبله بين الشعراء والنقاد ، أما العلماء باللغة والشعر القديم فلم يعرفوها ، وقد كان مسلم بن الوليد من أوائل من اقترحها(١) كما نراها مثبته فى كتابات الجاحظ .

منهجه وقضاياه :

والكتاب يبنى على قسمين القسم الأول وهو الأكبر يشمل فنون البديع الخمسة فى نظره وهى الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد الأعجاز على ما تقدمها ، والمذهب الكلامى .

ويؤكد ابن المعتز أن هذه هى الفنون الأساسية،وليثبت إحاطته بمحاسن الكلام ، التى ربما يظن من سيأتى بعده عدم علمه بها،قدم القسم الثانى بعنوان محاسن الكلام .

علما بأن هذه الفنون الخمسة الأولى هى التى كانت موضع الأخذ والرد بين أصحاب البلاغة العربية الخالصة وبين دعاة التجديد(٢). وقد جمعها ابن المعتز من كتابات اللغويين والمتكلمين وغيرهم ، ففى صدر حديثه عن التجنيس مثلا ذكر الأصمعى ، كما أشار إلى الجاحظ ، فى فاتحة عرضه للمذهب الكلامى ، مما يكشف عن تواصل الجهود فى مجال البلاغةوتطورها ونموها .

وقد بدأ بالحديث عن الاستعارة ، عرفهابقوله :" استعارة

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ـ ص ٦٩.

(٢) السابق نفسه ـ ص ٦٩ ، ٧٠.

الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها[١]، ومثل لها بشواهد من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وكلام الصحابة رضوان الله عليهم وأشعار الجاهليين والإسلاميين وكلام المحدثين، وهى تمثل الاستعارة الجيدة، لذلك نراه يعقب على ذلك بطائفة من الاستعارات الرديئة، وقد اقتفى البلاغيون فيما بعد هذه الطائفة وهذا المسلك فى التأليف، حيث يشيرون إلى الجيد والرديء فى أمثلة كل فن بلاغى، بعد أن يبدءوا بتعريفه .

وكذلك فعل فى حديثه عن الجناس وهو وإن لم يقسمه فإن من جاءوا بعده قسموه على أساس ما أورد ابن المعتز من أمثلة . لكن عدم تقسيمه يؤكد ميله الفنى وبعده عن المعيارية التى يمكن أن تقتل الفنون.

وبنفس الطريقة تناول الفن الثالث وهو المطابقة أو الطباق، حيث أشار إلى أصله اللغوى، وعرفه اصطلاحياتم مثل له بما استجيد منه، كما ذكر أمثلة لما عيب منه .

ثم تحدث عن" رد أعجاز الكلام على ما تقدمها"،وقد سمى فيما بعد، " برد أعجاز الكلام على الصدور" ومن أمثلته فيه : قول الشاعر :

سريع إلى ابن العم يشتم عرضه

وليس إلى داعى الندى بسريع

وتلا ذلك الفن الخامس وهو " المذهب الكلامى" وقد أراد به طريقة المتكلمين العقلية فى دقة الاستنباط والتعليل

---

(١) كتاب البديع صفحة ٢ ، ٣.

والكشف عن المعانى ، وقد نسب تسميته إلى الجاحظ ،كما أشار إلى أنه لم يجد فى القرآن شيئا من ذلك ،لأن هذا اللون من البديع قد ينسب إلى التكلف ، تعالى الله عن ذلك .(١)

وهذه الملاحظة الأخيرة بالنسبة للمذهب الكلامى يمكن أن تدل على رغبة ابن المعتز فى الإحاطة بمختلف فنون البديع بمفهومه العام الذى يشمل كل فنون البلاغة ، وفى نفس الوقت تكشف عن رفضه للتكلف ، وإيثاره للفنية كمذهب واتجاه، كما أنه لم يسرف فى محاولة تصنيف هذه القيم وتقديمها ، فتتأكد بكل ذلك وجهة نظرنا فى هذا الكتاب من حيث اهتمامه بالأصول وفنية القيم المتناولة .

ثم تحدث عما سماه محاسن الكلام ، وبين أنها أكثر من أن يحاط بها ، وتناول ثلاثة عشر لونا منها : الالتفات ،والاعتراض والرجوع ، والخروج من معنى إلى معنى، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، والهزل يراد به الجد، وقد استمده من الجاحظ ، وحسن التضمين ، والتعريض والكناية ، والإفراط فى الصفة وقد سماد بعدد قدامة بالمبالغة وفرع منه الغلو ، وحسن التشبيه ، وإعنات الشاعر نفسه فى القوافى، وتكلفه من ذلك ما ليس له " وهو يقرب مما سمى فيما بعد " لزوم ما يلزم " وأخيرا حسن الابتداءات .

وقد استشهد فى كل ما سبق بأمثلة من كلام القدماء والمحدثين ، وهذا يدل على اعتدال نظرته بين القدماء والمحدثين لاسيما عندما يذكر ما يستحسن وما يستهجن من كلام هؤلاء وأولئك بذوق صاف دقيق .

---

(١) السابق نفسه ص ٥٣.

وتسميته هذه الألوان بمحاسن الكلام دليل آخر على اتجاهه الفنى فيما تناوله من قيم .

ويمكن أن يؤخذ عليه هذا المأخذ الذى طالما وجه إلى مثل هذه الكتب التراثية ، وهو افتقادها إلى الوحدة ،والنظرة الكلية إلى النصوص ، لكن الهدف العام لهذا الكتاب ، والاتجاه الفنى الذى يتضح من وراء تناوله للقيم والأصول التى حاول رصدها ، والأعراف الفنية للأدب والبلاغة والنقد بصفة عامة فى ذلك الوقت ،كانت تصب اهتمامها على أجزاء العمل الفنى ، متجاوزة هذه الكلية ، ويمكن كل هذا أيضا أن يكون شفيعا لابن المعتز فى مسلكه ، وقد أصبح بهذا الكتاب إماما لكل من كتب فى البديع خاصة ،والبلاغة بصفة عامة .

مقومات الفن

في كتاب "عيار الشعر"

(لابن طباطبا)

مقومات الفن
فى كتاب " عيار الشعر"(*)لابن طباطبا (١)

يمكن أن يعد هذا الكتاب من أهم المصادر التراثية التى تكشف عن موقف البلاغة العربية بين الاعتداد بالقيمة الفنية والتطلع نحو القياس .

ويهتم صاحبه بالصقل والتجويد ،واعتبار الشعر صنعة ، من ثم فهو يبحث فى صناعة الشعر وميزان بلاغته ، ويبدو أن سائلا سأله عن الشعر ونظمه وسبل التوصل إلى ذلك فألف هذا الكتاب ليوضح ما سئل عنه .(٢)

وبادىء ذى بدء يفرق بين الشعر والنثر بالوزن ، كما يبين أن الشعر يتطلب الذوق والطبع ، ولابد للشاعر من معرفة بعلوم اللغة والنحو وطرائق العرب فى الكلام، والوقوف على أيامهم وأمثالهم ، وأعرافهم وتقاليدهم الشعرية .

(*) عيار الشعر ـ لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوى ـ تحقيق وتعليق د. طه الحاجرى ،د. محمد زغلول سلام ، ط المكتبة التجارية ، القاهرة ،١٩٥٦م .

(١) هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن طباطبا العلوى، ويرجع نسبه إلى الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ولد ونشأ بأصبهان ،وقدكان ناقدا وشاعرا ،وله مختارات فى الشعر مثل" تهذيب الطبع " وآخر فى العروض .. وغير ذلك ،وقد توفى ٣٢٢هـ.

(٢) عيار الشعر ، ص٣(المقدمة).

منهجه : يتحدث فيه عن صناعة الشعر من حيث :

أولا: فكرة الوحدة فى القصيدة :

وعندما يتحدث عن صناعة الشعر يتتبع مراحل الإبداع،من الموهبة والصياغة لفظا ومعنى ، إلى الصقل والتجويد، والترابط بين الأبيات ، ومن الصدق إلى الملاءمة بين الألفاظ والمناسبة بينها وبين السامعين ، وحسن التخلص من الغزل إلى المديح ، ومن المديح إلى الشكوى وغيره ، وجماع كل ذلك العقل .

وقد جعلت فكرة حسن التخلص هذه بعض الدارسين يذهب إلى عدم فهم البلاغيين والنقاد العرب لفكرة الوحدة فى بناء القصيدة ، بل ويرون أن هذا انعكاس خاطئ لفكرة أرسطو عن الوحدة طالما أنهم يجمعون فى القصيدة بين أغراض متعددة.(١)

لكننا نرى أن ابن طباطبا قد أدرك فكرة وحدة القصيدة فى ضوء أعراف العرب فى بناء شعرهم ، كما يتضح من حديثه عنها فى مطلع كتابه هنا ، أو فى نهايته حيث يقول:" وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أو له مع آخره ، على ماينسقه قائله ، فإن قدم بيتا على بيت دخله الخلل ، كما يدخل الرسائل والخطب نقض تأليفها ، فإن الشعر إذا أسس تأسيس فصول الرسائل القائمة بأنفسها وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها ، والأمثال السائرة المرسومة باختصارها لم يحسن نظمه ، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمةواحدة فى اشتباه أولها بآخرها ، نسجا وحسنا ،وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقةمعان ، وصواب تأليف ، ويكون خروج الشاعر من كل معنى

---

(١) د. محمد غنيمى هلال ـ النقد الأدبى الحديث ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥.

يصنعه إلى غيره من المعانى خروجا لطيفا على ما شرطناه فى أول الكتاب،حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغا كالأشعار التى استشهدنا بها فى الجودة والحسن واستواء النظم ، لا تناقض فى معانيها ، ولا وهى فى مبانيها ولا تكلف فى نسجها ، تقتضى كل كلمة ما بعدها ، ويكون مابعدها متعلقا بها مفتقرا إليها".(١)

وما أظن أن وحدة المشاعر ، ووحدة السياق، ونمو الفكرة - وهو ما يمكن أن يطلب من الشعر الغنائى - يختلف عن مفهوم ابن طباطبا ، بل إن مفهوم الوحدة لديه أوفى مما يطالب به المحدثون الشاعر فى بناء قصيدته ، طالما أن موضوعها ليس على هيئة قصة .

ثم إن أرسطو قد تحدث عن الوحدة العضوية فى أجناس الأدب الموضوعية كالمسرحية ولم يقصد بها الشعر الغنائى ، الذى كان عليه أغلب الشعر العربى ، وأعتقد أن تصور ابن طباطبا يمكن أن يكون مقبولا إذا ما عرفنا أنه يدعو إلى تمازج المعانى فى القصيدة .

ويكشف هذا عن تنبه ابن طباطبا إلى فكرة الوحدة فى القصيدة،وإن لم ينم من جاءوا بعده هذه الفكرة،برغم أن هناك من قد عد تعلق البيت بما قبله من حيث تمام الفكرة- لونا من ألوان - " التضمين " المعيب .

هذا وقد أشار ابن طباطبا إلى تفاضل الأشعار فى حسنها ، وإلى أن الألفاظ معارض للمعانى ، مما يبين أهمية الصياغة الفنية للشعر كفن ، كما أشار إلى أن فى كتابه

---

(١) عيار الشعر ، ص ١٢٦ ، ١٢٧.

المسمى ، " تهذيب الطبع " نماذج كثيرة لما اختاره من شعر الشعراء ، يمكن الاستفادة منها كشواهد على ما يرى فى صناعة الشعر الجيد.

ويرى أن المولدين قد استفادوا ممن تقدمهم من الشعراء عندما لطفوا فى التناول ، وتكثروا وأبدعوا فسلم لهم الشىء الكثير للطيف سحرهم . من هنا يبين أن موقف معاصريه من الشعراء دقيق ، وعليهم ألا يظهروا شعرهم إلا بعد ثقة بجودته وحسنه وسلامته من العيوب .

وامتدادا لفكرة استفادة اللاحقين من السابقين يرى ابن طباطبا أن أوصاف العرب وتشبيهاتهم وقيمهم منتزعة من بيئتهم ، وعلى من تغمض عليه أن يتأمل ويبحث وسوف يكتشف دقة طبعهم وفضلهم ، ويكشف لنا هذا عن اتجاه محافظ لدى هذا المؤلف ، لا سيما وهو يشيد بمثل العرب الأخلاقية فى المديح والهجاء.

ثانيا: من معايير الشعر الجيد فى نظره :

يحاول ابن طباطبا أن يقدم بعض القيم التى يرد إليها جودة الشعر فى نظره وتتمثل فى :

١ - للشعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه ، فإذا اجتمع مع هذا الفهم صحة وزن الشعر وصواب المعنى وعذوبة اللفظ ، وكان مسموعه ومعقوله مقبولين فهو شعر جيد، ويستشهد بقول النبى صلى الله عليه وسلم " إن من الشعر لحكمة[١] وإن من البيان لسحرا"[٢] لينتهى إلى

---

(١) السابق نفسه ص ١٥.

(٢) نفسه ص ١٦.

أن أثر الشعر الجيد فى النفس يستولى عليها ، عندما يمازج الروح ويلائم الفهم .

٢ ـ موافقة الشعر للحال التى يعد معناه لها .

٣ ـ الصدق عن ذات النفس يكشف المعانى المختلجة فيها .

ولعلنا نلاحظ اتجاهه فى هذه القيم وجهة فنية ، برغم ما قد يبدو من محاولة التقعيد .

ثالثا : التشبيه :

وهو من بين أبواب البلاغة التى اهتم بها ابن طباطبا ؛ حيث بين أنه على ضروب مختلفة ، لذلك فقد قسمه أقساما عدة ، منها تشبيه الشىء بالشىء صورة وهيئة ، ومنها تشبيهه به معنى ، ومنها تشبيهه به حركة وبطوءا ، وسرعة ، ومنها تشبيهه به لونا ، وصوتا ، وربما امتزجت هذه المعانى بعضها ببعض ، ثم يأخذ فى تفصيل كل لون عارضا لأمثلة من جيد الشعر العربى توضح ما يذهب إليه ، كما أشار إلى أدواته .

وقد اهتم به اهتماما يكاد يشعرنا ـ من وجهة نظره ـ بأهمية التشبيه فى الشعر ، لذا فهو من أهم أقسام هذا الكتاب ، وإن لم يفض فى بيان أثر التصوير فى القصيدة ، ولذلك يمكن أن يكون موقفه هنا ممثلا لمحاولة الجمع بين الاتجاهين الفنى والقاعدى .

كما يؤكد على حسن الابتداءات ، وتماسك المعانى ، ويشير إلى التعريض الذى ينوب عن التصريح ، والاختصار الذى ينوب عن الإطالة[1] ، وتلك إشارات إلى قيم بلاغية .

---

(١) انظر السابق ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

وقد عرض لبعض سنن العرب وتقاليدهم الاجتماعية التى لا تفهم معانيها إلا سماعا ، وقد تغمض على قارىء أشعارهم ، وذكر شواهد تتضمن شيئا من ذلك ، ومعظم هذه العادات وليدة الجاهلية . وهو بذلك يؤكد وجوب الاتصال بتقاليد العرب واعرافهم لفهم شعرهم .

رابعا: نماذج لجيد الشعر ورديئه :

ويتحدث ابن طباطبا – وذلك من قبيل النقد الأدبى – عن طائفة من الأشعار الجيدة فى نظره لما فيها من إحكام الرصف واستيفاء المعانى ، وسلامة الألفاظ وحسن الديباجة ، وسهولة المخارج ، وصدق الحكاية ووقوع كل كلمة موقعها الذى أريدت له ، أى وفقا لما أشار إليه من قيم ، كما عرض لأبيات أغرق قائلوها فى معانيها[1] ومنهم من بالغ مبالغة شديدة كقول أبى نواس فى مدح الرشيد :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه
لتخافك النطف التى لم تخلق

وكقول بكر بن النطاح :

لو صال من غضب أبو دلف على
بيض السيوف لذبن فى الأغماد

وهو يحاول أن يضع أيدينا على مواطن الإجادة فى بعض هذه النماذج ، كما يشير فى مقابل ذلك إلى أمثلة لغث الشعر المستكره الغلق ، القلق القوافى المتكلف الذى يصدىء الفهم ويورث الغم[2]، وفى هذا الصدد قد يذكر القصيدة كاملة ليضع

---

(١) السابق ، ص ٣٢ ، ٤٥.

(٢) السابق ، ص ٤٠ ، ٦٧ ، ٧٠.

أيدينا على ما عابه منها ، وما قبله مثل قصيدة الأعشى التى مطلعها :

بانت سعاد وأمسى حبلها انقطعا

واحتلت الغمر فالجدين فالفرعا(١)

ولم يسلم منها سوى خمسة أبيات ، وقد يقترح ما يمكن أن يستبدل من ألفاظ أحيانا ، مما يكشف عن ذوق ودربة ، واحتكاك بفن الشعر.

وهو لا يكتفى بذلك،بل يحيلنا على كتابه المسمى " تهذيب الطبع " حيث جمع فيه نماذج لجيد الشعر.

خامسا: المعانى المشتركة (السرقات):

أشار ابن طباطبا فى حديثه عن المعانى المشتركة إلى السرقات ، وبين أن أكثر من يستحسن الشعر تقليد على حسب شهرة الشاعر وتقدم زمانه ، ولا مانع لديه من أن يأخذ اللاحق معانى السابقين،بشرط أن يتلطف فى عرضها واستعارتها حتى تخفى على نقادها والبصراء بها، ويمكن أن يتم ذلك باستعمال المعنى فى غير جنسه مثلا ، كالصائغ الذى يذيب الذهب والفضة المصوغين فيعيد صياغتهما بأحسن مما كانا عليه،ويضرب أمثلة عدة ، منها ما قاله رجل لمعاوية حيث سأله : كيف الزمان عليك ؟ فقال يا أمير المؤمنين أنت الزمان ،إذا صلحت صلح الزمان ، وإذا فسدت فسد الزمان ، فأخذه على بن محمود ابن نصر فقال :

لا أظلم الليل ولا أدعى أن نجومه ليست تغور

ليلى كما شاءت فإن لم تزر طال وإن زارت فليلى قصير(٢)

---

(١) نفسه ، ص ٦٧ ، ومابعدها.

(٢) السابق نفسه ، ص ٨٢ ، ص ٨٣.

سادسا : تطبيقات :

كما يعقد ابن طباطبا عدة فصول نقدية تطبيقية لمعانى الشعر وألفاظه ، وإن كان يستمد فى أسسها النظرية من تقسيمات ابن قتيبة للفظ والمعنى(١) ، ويعرض لنماذج من الشعر الحسن الواهى المعنى ، ولأخرى تمثل المعنى البارع فى المعرض الحسن ، ولتشبيهات بعيدة لم يلطف أصحابها فيها ، ولأبيات أخرى زادت قريحة قائليها على عقولهم ، ولنماذج من الشعر القاصر عن الغايات ، كما يعرض لأبيات من الشعر الرديء النسج ، ولأخرى من الشعر المحكم النسج لتمكن قوافيها ، وهو فى كل ما سبق يضع أيدينا على موطن الإجادة وسببها ، ومواضع الضعف الموجودة ليحترز منها ، وقد يقترح إبدال لفظة بأخرى حتى يستقيم المعنى أو البيت ، ويعتبر هذا القسم امتدادا لما عرضه سابقا من جيد الشعر ورديئه .

ولا يلبث أن يشير إلى نماذج شعرية للتخلص من غرض إلى غرض مبينا كيفية ذلك ، وما يقبل وما يرفض فى هذا الصدد ، مؤكدا على وجوب التمازج بين المعانى حتى لا يدرك بينها خلل أو فجوات .

سابعا : الغموض فى الشعر:

وقد حذر من الشعر البعيد الغلق نظرا لما فيه من إشارات بعيدة، وحكايات غلقة وإيماءات مشكلة ، وأوصى باستعمال المجازات الملائمة ، والاستعارات المناسبة .

---

(١) ابن قتيبة ـ الشعر والشعراء ـ ط دار المعارف بمصر، سنة ١٩٦٦ ص ٠٦٤.

ولعبد القاهر الجرجانى فى كتابه "أسرار البلاغة" فكرة تتصل بذلك ، حيث يبين أن مكونات الصورة يجب أن تدق وتتباعد علاقاتها، حتى يعانى المتلقى جهدا فى الوصول إلى المحتوى والدلالة والمعانى الإضافية ، ويشبه ذلك بالصدفة ، التى يصعب شقها للوصول إلى ما بداخلها من لؤلؤ ، من هنا يجب أن نفرق بين نوعين من الغموض أحدهما :

الغموض الشفيف المعطاء ، والآخر الغموض الملغز، الذى يعد تعمية وإبهاما للفكرة وهو مرفوض، ويمكن أن يستفاد من ذلك اليوم، حيث كثيرا ما تثار هذه القضية أمام ما يموج به الشعر الحديث ، من وسائل التعبير ، وتعدد صور الصياغة ، وكثير منه يخرج عن دائرة الفن الجيد المدعوم بالخبرة بأساليب العرب ، والتفنن فى الصياغات العربية وأصبح ضربا من الأحاجى والألغاز ولا يكاد يبين[1] .....، وعندما يتحدث ابن طباطبا عن ملاءمة الشعر لمبانيه، يدعو إلى أن يحرص الشاعر على استثارة ما فى النفوس، والتعاطف معها ليحسن قبولها للشعر؛ من خلال حكمة أو قول صادق أو تشبيه موافق ، والبعد عن المكرور ، والتلطف والإتقان والصقل ، من هنا يدعو الشاعر إلى خلو افتتاحياته مما يتشاءم به ويتطير منه فى المدائح والتهانى .

وهذا لعمرى إدراك واع لكيفية توظيف الأدب للتأثير فى المتلقى بالفكرة المتضمنة بناء على خبرته بالنفوس وأحوالها، وإن كان يعوزها الشمول؛ حيث قصرها ابن طباطبا على المدائح والتهانى ، لكننا يمكن أن نعممها على كل أغراض الأدب وفنونه .

---

(١) انظر كتابنا الاتجاه النفسى فى نقد الشعر ط مكتبة المعارف بالرياض سنة ١٤٠١ هـ ص ٨٥ ومابعدها.

عود على بـــــدء :

وإذا كان قد بدأ كتابه مؤكدا على وحدة القصيـــــدة، فها هو ذا يدعو الشعراء إلى تأمل شعرهم ، وتنسيق أبياتهم بحيث تتماسك أبيات القصيدة،وتترابط معانيها وتتصل كلماتها حتى تغدو بناء محكما متشاكلا .

وقد أفاد من سابقيه كابن قتيبة والجاحظ كما أفـــاد منه لاحقوه كالمرزبانى فى الموشح ، وأبى هلال العسكرى فـــى الصناعتين ،لا سيما فى حديثهما عن الخطأ فى المعانـــــــى والألفاظ .

وهذا الكتاب ، وإن كان يمثل المؤلفات التى تمتـــزج فيها البلاغة بالأدب ونقده ، فيجب أن ندرك أن ذلك كان يسير فى نفس الوقت مع كتب أخرى تخصصت فى دراسة البلاغة ويمكـــن أن يدل ذلك على ازدهار المباحث حول فن القول ، كما يدل علـــى أهمية المباحث البلاغية فى هذا المجال ، وفى مرحلة مهمة من تاريخ البلاغة العربية .

كما يكشف هذا الكتاب عن ولاء كبير للقيمة الفنيـــــة للفكرة البلاغية .

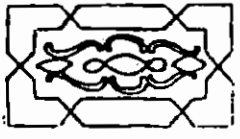

"نقد الشعر"

لقدامة بن جعفر والأثر اليوناني فيه

كتاب "نقد الشعر"(١) لأبى الفرج قدامة بن جعفر والأثر الهلينى فيـــــــه
(٢٦٠ - ٣٣٧هـ)(٨٧٣- ٩٤٨م)

يمكن أن يمثل هذا الكتاب ملمحا آخر فى تاريخ البلاغة العربية ، هو تأثرها بالفكر الهلينى لا سيما بكتابى أرسطو " الشعر" والخطابة ، لكنه ذلك التأثر العام الذى لا يجعل صاحبه تابعا لغيره ، وإذا كان الجاحظ وابن المعتز قد مثلا تيار الأصالة فى القرون الهجرية الأولى إلى حد كبير، فإن أبا الفرج قدامة بن جعفر ، يمكن أن يمثل محاولة الاستفادة من الفكر الأجنبى الوافد ، وهو ما يسمى بتيار المتفلسفة فى الفكر العربى فى هذه الفترة .

حقا يمكن أن نلمح تأثرا عاما بهذا الفكر اليونانى عند غير أبى الفرج ، وهو تأثر عام أيضا لا يخفى أصالة أصحابه ، ولا أصالة فكرنا العربى ، بل يمكن أن يكون هذا التأثر العام ممثلا للاتصال الحضارى بين ألوان المعرفة المختلفة .

---

(١) طبع هذا الكتاب عدة طبعات منها :
١- ط١٩٥٦م نشر س . أ - بوينباكر مطبعة بريل ليون .
٢ - ط ١٣٠٢ هـ مطبعة الجوائب .
٣ - ط سنة ١٣٥٢هـ ، ١٩٣٤م بتحقيق محمد عيسى منون
٤ - ط بتحقيق محمد كمال مصطفى ونشر مكتبة الخانجى القاهرة .
٥ - ط سنة ١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩م بتحقيق د. محمد عبدالمنعم خفاجى ، نشر مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة .
التعريف به : هو أبو الفرج قدامة بن جعفر كان أبوه نصرانيا ، وقد عمل هو فى كتابة الدواوين ، وله كتب أخرى منها "الخراج" وقد توفى سنة ٣٣٧ هـ .

لكن هذا الاتجاه واضح بدرجة كبيرة عند أبى الفرج ، وهو وضوح لا يلغى أو يخفى أصالة صاحبه ، حيث حاول قدامة أن يضع أصول البلاغة العربية ، فى كتابه هذا ، كما سوف نوضح .

ويبين قدامة أن هدفه من هذا الكتاب هو العناية بتمييز جيد الشعر من رديئه [١] ، لأنه برغم ما كتب سابقوه ومعاصروه فى الشعر فإنهم قصروا فى هذه الناحية ،ولم يصيبوا، ويجعل قدامه مرتكزه فى هذا التمييز كثيرا من القيم البلاغية التى سوف يتناولها ، كما يوضح أنه استنبط معان لم يسبق إليها واخترع لها أسماء ، فمن شاء أخذ ما اخترعه بتسمياته له ، ومن شاء أخذه واخترع له تسميات أخرى [٢] وهنا نلمح تأثره بابن المعتز فى هذا المنحى الفكرى ألا وهو ترك الحرية لمن جاءوا بعده فى مواجهة فكره .

وقد أشار الدكتور طه حسين إلى أن قدامة لم يقرأ كتاب الشعر لأرسطو حيث لم يلمح لديه ظلا لنظرية المحاكاة التى فسر بها أرسطو الفنون ، كما أن أرسطو لا يسمى الكلام المنظوم شعرا ، بينما قدامة يضع ذلك حدا للشعر يعرفه بقوله : " إنه قول موزون مقفى يدل على معنى" [٣] لكن طه حسين يثبت فى نفس الوقت إحاطة قدامة بكتاب الخطابة لأرسطو .

أما الدكتور شوقى ضيف فيذهب إلى أن قدامة قد تأثر بكتابى أرسطو" الشعر" و" الخطابة" معا ، ويتضح هذا التأثر

---

(١) أبو الفرج قدامة بن جعفر نقد الشعر تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجى ط ١ ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ، ص ٦١ ، ٦٢.

(٢) السابق نفسه ص ٦٨.

(٣) السابق نفسه ص ٦٤.

فى نواحى كثيرة منها تنظيم الكتاب ، حيث جعله فصولا ثلاثة ، فى الأول منها بدأ بتعريف الشعر ، وببعض مقدمات ضرورية ، ثم بين أجزاءه ، وفى الفصل الثانى تحدث عن نعوت الجودة فى الشعر ، أما الفصل الثالث فخصه بعيوب الشعر[١] وعلى أى الأحوال فالذى لا شك فيه أن قدامة متأثر بالفكر اليونانى خاصة أرسطو ، لكنه ذلك التأثر العام الذى لا يشكل تبعية مطلقة أو إلغاء للشخصية ، كما سبق أن قررنا .

ويتضح موقف كتاب نقد الشعر بين القيمة والمعيارية من تقسيم الكتاب ذاته فنجد قدامة يقول فى الفصل الأول كما قال أرسطو إن الشعر صناعة ولكل صناعة طرفان أحدهما غاية الجودة والآخر غاية الرداءة وبينهما حدود تسمى الوسائط .[٢]

ثم يبين أنه للشاعر أن ينظم فيما يشاء من المعانى لأنها مادة عمله ، كما أن مناقضة الشاعر لنفسه عندما يصف شيئا حسنا ، ثم يعود فيذمه ليس بمنكر عليه مادام قد أجاد هنا وهناك، واعتباره الشعر صناعة يمكن أن يلفت النظر إلى الجوانب الفنية فى هذا الكتاب ، برغم أن الجاحظ قد سبق قدامة إلى تقرير هذه الفكرة عندما قال " الشعر صناعة وضرب من التصوير" ، لكن تناول قدامه فيه من العمق الشىء الكثير، حيث يبين أن المعانى كالمادة الخام ، ثم تأخذ شكلها الفنى الملائم بفضل صياغة الشاعر لها، وما يودعه فيها بفنه ومقدرته ، تماما كالصائغ للفضة أو الذهب ، أو كالنجار فى تشكيله الجميل للخشب ، فغاية الشاعر التجويد الفنى مهما كان ذلك المعنى رفيعا أو وضيعا.[٣]

---

(١) د. شوقى ضيف البلاغة تطور وتاريخ ص

(٢) نقد الشعر ص ٦٤.

(٣) انظر السابق نفسه ص ٦٥.

من هنا فإن قدامة لا يعتد بالصدق الأخلاقى طالما تحققت الإجادة الفنية ،فمناقضة الشاعر نفسه فى قصيدتين أوكلمتين بأن يصف شيئا حسنا ثم يذمه بعد ذلك ذما حسنا ، بينما ،غير منكر عليه ،ولا معيب من فعله إذا أحسن المدح والذم[١]، بل ربما دل ذلك على قوة الشاعر ومقدرته ، وربما كان قدامة متأثرا فى ذلك بأرسطو فى حديثه عن العلاقة بين الفن والواقع .

وإذ يحدد قدامة عناصر الشعر : باللفظ والمعنى والوزن والقافية ،فإن نعوت الجودة لديه تتصل بكل منها مفردة ومركبة مع غيرها من العناصر ، لكنه ينظر إلى القافية مع المعنى لا مع اللفظ؛ لأنها جزء منه ، وهذا التقسيم اتجاه معيارى واضح لديه .

وفى الفصل الثانى: تحدث عن نعوت الجودة ، وقد جعلها وفقا لتقسيمه السابق ، فمنها ما يختص باللفظ مثلا بأن يكون سهل مخارج الحروف فصيحا خال من البشاعة .

ومنها ما يتصل بنعت الوزن بأن يكون سهل العروض ، وذكر من نعوته أيضا "الترصيع " ، وقد وضحه بأنه يتوخى فى البيت تقطيع أجزائه مسجوعة أو شبيهة بالمسجرعة ،أو من جنس واحد فى التصريف [٢]، كقول الشاعر:

هو ان الحياة وخزى الممات وكلا أراه طعاما وبيلا

وكقول الآخر :

سود ذوائبها بيض ترائبها محض ضرائبها صيغت على الكرم

---

(١) انظر السابق نفسه ص ٦٨.

(٢) انظر السابق نفسه ص ٨٠.

وقد نبه إلى أن الترصيع لا يحسن فى كل موضع ، بل لابد من حسن اختيار الموضع الذى يصلح فيه ، حتى لا يكون متكلفا، وهذه ملاحظة جديرة بالاعتبار ، تعلى من الجوانب الفنية التى يهتم بها قدامة فى هذا الكتاب ، وهى نفس الملاحظة العامة التى أكدها عبد الله بن المعتز العباسى فى كتابه البديع، كما أن هذه الملاحظة فى نفس الوقت مثال لتواصل الظواهر الفنية .

وفى نهاية تناوله لهذه الصفة يذكر أمثلة من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم تتضح فيها هذه الظاهرة، ليستشهد بها على قيمة الترصيع الفنية ، هذا برغم كثرة الألوان البديعية والتقسيمات التى أشار إليها مما يجعل المعيارية ظاهرة لديه فى هذا الموضع .

ويشير إلى "التصريع " فى حديثه عن نعت القوافى، ويوضحه بأنه انتهاء الشطر الأول فى البيت الأول من القصيدة بنهاية مثل القافية تماما ، وقد بين أن هناك من الشعراء من يأتى بمثل ذلك فى غير البيت الأول ليثرى الموسيقى فى القصيدة، لأن " بنية الشعر هى " التسجيع والتقفية" ، وهو ما يميزه عن النثر ، وهذه لمحة تكشف عن أهمية الجانب الموسيقى فى الشعر.

وقد اكتفى فى حديثه عن نعوت المعانى ببيان أهم أغراض الشعر فى نظره وهى المديح والهجاء والمراثى والتشبيه والوصف ،كما وضح لكل غرض من الأغراض السابقة النعوت التى يكون بها محمودا ، وهو بذلك يؤكد اتجاهه المعيارى الحاسم فى مجال لا يصلح فيه الحسم حيث إن أغراض الشعر ليس من السهل تحديدها على نحو ما فعل قدامة .

وإذا كان قدامة قبل ذلك يميل إلى إطلاق حرية الشاعر في محراب الفن،فإن تحديده لأغراض الشعر على هذا النحو ينأى به إلى حد كبير عن هذا المحراب ، وهو بذلك قد يناقض نفسه ، ويشتد هذا التناقض في حديثه عن المقومات الفكرية لأغراض الشعر ، ومحاولة الكشف عن بعض الفروق بينها ، مثلا عندما يوحد بين المرثية والمدحة ، ثم يبين أنه لا فرق بينهما إلا أن الأولى للهالك والثانية لحى[١]، متجاوزا كل البواعث والمشاعر المتباينة بينهما،سواء بالنسبة للمبدع أوالمتلقي أو النص ذاته ، لكنه لا يلبث أن يدرك بحسه الفني دورالصياغة في هذا المجال،فيشير إلى " أنه لا فضل بين المديح والتأبين إلا في اللفظ دون المعنى" [٢] وهي قضية يخالف أولها آخرها طالما أن اللفظ والمعنى وجهان لعملة واحدة هي القضية المتناولة .

كما نراه يعود إلى أحد خطوط كتابه الواضحة حيث يعلي من قيمة الجوانب الفنية بموقفه بين الغلو في الشعر والاقتصار على الحد الأوسط ، حيث يذهب إلى أن الغلو أجود المذهبين ، وأن هذا ما يراه أهل الفهم بالشعر والشعراء، ومن ثم يكرر مقولة " أعذب الشعر أكذبه " مفسرا ذلك بأن غاية الشاعر من المبالغة هو بلوغ النهاية في الصفة، والاتجاه نحو المثل الأعلى للفكرة المتناولة . لكن الشيء اللافت للنظر هو نسبة كل ذلك إلى المعنى ، مع أن للصياغة دورها الواضح في الكشف عن هذه الغاية ، وهو ما يتسق مع وجهته الفنية في هذا الكتاب .

وقد جعل التشبيه من بين نعوت المعاني ، والجيد في نظره هو التشبيه الذي يوقع بين الشيئين الاشتراك في معان

---

(١) انظر السابق نفسه ص ١١٨ ، ١١٩.
(٢) انظر السابق نفسه ص ١١٩.

تعمهما أكثر من انفراد كل منهما فى هذه الصفات حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد[١]، وهو بعد ذلك لا يقدم تقسيمات ، ولا تفريعات لهذه الفكرة ، بل يحاول أن يلتقط من خلال تحليلاته لبعض التشبيهات فى الشعر ما يبرز بعض المزايا الجمالية، بتصرف الشعراء فى التشبيهات ، كأن تكون الصفة المشتركة بين الطرفين جديدة لم يدركها السابقون ، وبذلك يتوفر للصورة عنصر الابتكار والتجويد ، أو يحقق التشبيه عمقا فى المعنى يتجاوز الشكل ، أو يشبه شيئا بأشياء فى بيت أو لفظ قصير ، مما يحقق للصورة الثراء والخصوبة .

وهى كلها نواح تتصل بفنية الصورة وعطائها، ولهذا فإن تناول قدامة للتشبيه برغم إيجازه أوفى من الناحية الفنية من كثيرين ممن تناولوا التشبيه بعد القرون الخمسة الهجرية الأولى، حيث أغرقوا أنفسهم فى تقسيمات وتفريعات، وفى نفس الوقت فإن تناول كل البلاغيين السابقين تقريبا لفن التشبيه دليل على أهمية الصورة فى البلاغة العربية، وإن كانت تناولات بعضهم ، لا تتجاوز الناحية الموضعية للتشبيه أو الصورة ، ولا تحاول الربط بين النص ككل وبين هذه الصورة أو التشبيد .

وثمة ملاحظة لافتة للنظر أيضا؛ ألا وهى أن قدامة قد جعل التشبيه نعتا لمعانى الشعر، وقرنه بالوصف والرثاء والمديح وغيرها من نعوت المعانى فى نظره، فما المسوغ الذى جعله يتجه هذه الوجهة ؟ مع أن التشبيه يمكن أن يكون وسيلة بينما المديح والرثاء والوصف والتشبيه غاية؟ ربما لأنه تصور أن التشبيه يتعلق بالشكل بينما الأغراض الأخرى تتعلق بالمضمون ، وربما كان قدامة ينظر إلى هذه النواحى نظرة

---

(١) انظر السابق نفسه ص ١٢٤.

كلية ، بمعنى أن التشبيه والمديح والرثاء كلها أدوات لفن الشعر ، تتآزر للكشف والإمتاع والإثراء الفكرى ، وكل ما يحقق للفن جوهره وفنيته ، وهذا ما يتمشى مع وجهة هذا الكتاب الذى يتغيا تمييز جيد الشعر من رديئه ، وإثراء فكر المتلقى إمتاع وجدانه بواسطة جيد الشعر،لم يكن من الأهداف البعيدة عن بغية قدامة فى هذا الكتاب ، حيث نجده فى الوصف مثلا يبين أن أجود الشعراء " من أتى فى شعره بأكثر المعانى التى الموصوف مركب منها ، ثم أظهرها فيه وأولاها حتى يحكيه بشعره ويمثله للحس بنعته "[١] ونراه يدلل على ذلك بتحليل كثير من النماذج الشعرية التى تجلى وجهة نظره .

كما نراه فى النسيب يبين أنه ذكر خلق النساء وأخلاقهن،وتصرف أحوال الهوى به معهن ، ثم يفرق بين النسيب والغزل مبينا أن الأول ذكر الغزل،بينما الغزل هو المعنى نفسه ، هو التصابى ، وجيد النسيب هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك والصبابة [٢] ثم يتتبع النماذج الشعرية التى تكشف عن التوله والسقم وشدة الوجد ليدلل على فكرته .

وقد أضاف إلى ابن المعتز ثلاثة عشر محسنا هى :
الترصيع ،والغلو وصحة التقسيم ، وصحة المقابلات وصحة التفسير والتتميم والمبالغة والإشارة والإرداف والتمثيل الذى سمى فيما بعد بالمماثلة ، والمطابق والتوشيح والإيغال والتكافؤ وهو ماسماه ابن المعتز الطباق ، وهو فى كل ما سبق يحاول أن يحدد اللون الذى يذكره ، واصفا له ، ثم يأتى بالنماذج الشعرية التى يمكن من خلال عرضه لها أن تكشف

---

(١) انظر السابق نفسه ص ١٣٠.
(٢) انظر السابق نفسه ص ١٣٤.

عن هذا اللون وأثره فى المعنى ، إثراء وإمتاعا ، وهى وجهة فنية جديرة بالاعتبار ، لكن كثرة الأنواع ومحاولة الوصف والتحديد تجعله على ولاء ظاهر للمعيارية فى هذا الموضع أيضا .

وفى الفصل الثالث : أشار إلى عيوب الشعر، ذاكرا بإزاء كل نعت جيد فى الشعر مما ذكره فى الفصل الثانى، النعت المعيب الذى يقابله ، وهو جانب يتعلق بالنقد .

ويبدأ بعيوب اللفظ ومنها :

المعاظلة وقد قصد بها فاحش الاستعارة، وهى التى تتميز بالتعقيد ، وإيجاد علاقات بين أشياء غاية فى التنافر، كتسمية الصبى تولبا ، وهو ولد الحمار كما فى قول أوس :

وذات هدم عار نواشرها تصمت بالماء تولبا جدعا

ثم عيوب الوزن ويذكر منها التخلع ، ثم عيوب القوافى ومنها التجميع ، والإقواء والإيطاء والسناد.

أما عيوب المعانى ، فيبين أن ما خالف الفضائل النفسية – فهو معيب سواء فى المدح أو الهجاء ، لكننا نلحظ بصفة عامة حرص أبى الفرج قدامة بن جعفر على تحرى دقة المعنى وتحريره ، ولذلك عاب فساد الأقسام ، وفساد المقابلات وفساد التفسير ، والاستحالة والتناقض فى المعانى ومخالفة العرف .

وهو مستفيد فى ذلك من كلام أرسطو عن المتناقضات فى كتابه الخطابة ، وعلى الاستحالة فى كتابه الشعر.

وتنسحب كثير من هذه المتناقضات على عيوب الأقسام الأخرى كالإخلال فى عيوب ائتلاف اللفظ والمعنى ، والحشو فى عيوب ائتلاف اللفظ والوزن ، والمقلوب فى عيوب ائتلاف المعنى والوزن معا ، وبرغم أن محاولة حصر العيوب قد يكون ظاهرها

الدقة وتحرير المعنى ،وإصابة الهدف الفنى ، لكنها كثيـــــرة، كما أنه يكتفى بالتعريف لكل عيب بإيجاز مع ذكر مثال أوأكثر بعيدا تماما عن محاولة التحليل والكشف الكلى ، مما يجعلـــه على ولاء ظاهر للمعيارية هنا أيضا.

وهو كغيره من كتب هذه المرحلة قد بذل جهدا عظيما ،لكن بعضه فى سبيل الاستفادة من الفكر اليونانى الوافد ، وبعضـــه الآخر فى سبيل الاستفادة من سابقيه كالجاحظ وابن المعتز ،وكل ذلك وهو يعرض للبلاغة العربية .

ولقد حاول أن ينظر نظرة شاملة وهو ينظّر ، ولكنأعـوزه الشمول وهو يطبّق ، فجاءت أمثلته مبتسرة ، ولئن قدم أحيانـــا نصوصا كاملة لكنها بعيدة عن التحليل الكلى .

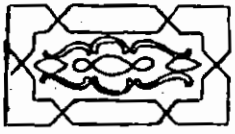

التصور المعيارى للفن فى كتاب

"الصناعتين" - العسكرى

التصور المعيارى للفـــن
فى" كتاب الصناعتيـن
الكتابة والشعر "

لأبى هلال العسكـــــــــرى (ت ٣٩٥هـ)(*)

الهدف من تأليفـه :

يريد العسكرى بالصناعتين النثر والشعر، وقد أشار فى مقدمة كتابه إلى أهمية علم البلاغة وضرورته لفهم إعجـــاز القرآن الكريم ، والتمييز بين جيد الكلام ورديئه ، فبه يقف الشاعر أو الكاتب على الأساليب الجيدة فى صناعتى النثـــر والشعر ، فإذا ما خبرها هذا الكاتب أمكنه أن يرقى إلى فهم النص القرآنى الكريم ، وهو النموذج الأعلى الذى تحـــاول البلاغة العربية أن تصف بعض جوانبه .

وقد ألف العسكرى هذا الكتاب ليسد ما وجده من نقص فى كتاب " البيان والتبيين " للجاحظ ، الذى ـ برغم ثنائـــه عليه ـ أشار إلى أن حدود البلاغة والبيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه ، ضالقبين الأمثلة، وسوف يكشف هو عن تلك الحدود والأقسام بجلاء.(١) وبهذا يمكن أن يكشف أبو هلال منذ البداية

(*) هو أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بـــن يحيى بن مهران العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ عالم فقيه أديب من مؤ لفاته الأخرى: التلخيص فى اللغة ، وشرح الحماسة .... وغيرهما.

(١) أبو هلال العسكرى ـ الصناعتين ـ تحقيق على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، ط الحلبى ، سنة ١٩٧١م، ص ١١

عن اتجاهه المعيارى وهو يتناول النثر والشعر.

منهجـــــه :

وقد جعل كتابه بعد هذه المقدمة فى عشرة أبواب ،وقسم كل باب إلى عدة فصول ،ما عدا البابين الرابع والثامن:

١ - مفهوم البلاغة : تحدث فى الباب الأول عن البلاغة لغة واصطلاحا ،وما يجرى معها من تصرف لفظها ، كما عرف الفصاحة ، ثم فرق بينهما فى المعنى والمصطلح، وعرض لبعض تعريفات البلاغة لدى سابقيه ، كما قام بشرحها وضرب أمثلة كثيرة لما فى ذلك من قيم وعرفها هو بقوله : "البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه فى نفسه كتمكنه فى نفسك،مع صورة مقبولة ومعرض حسن ".(١) وهو تعريف كما يبدو يوثق من العلاقة بين المبدع والمتلقى على أساس نفسى عماده حسن التلقى والقبول النفسى ، والجمال الفنى .

٢ - المعانى : وفى الباب الثانى الذى جعله لتمييز الكلام جيده من رديئه ، تحدث فى المعانى ووضع شروطا لحسن الكلام كالسلاسة والسهولة والنصاعة،وتخير اللفظ وإصابة المعنى ، وجودة المطالع (٢)..... الخ ، ثم يضرب أمثلة لما عابه من المعانى لأنه خرج عن شروطه .

وقد قسم المعانى إلى ضربين ، ضرب مبتكر يبتدعه صاحب الصناعة من غير اقتداء أو تأثر بغيره فيه ، وضرب آخر يتأثر فيه الأديب بغيره ، ولابد من الإصابة فيهما كليهما ، وهى إضافة مفيدة .

---

(١) السابق نفسه ص ١٦.

(٢) السابق نفسه ص ٦١.

وقد دفعه البحث فى هذا الصدد إلى أن يحذر من" الكذب والمحال والفاسد " من المعانى ، وضرب أمثلة لهذه الأنواع، وقد وفع هو هذه الأمثلة لإيضاح فكرته .(١)

وفكرةتقسيم المعانى إلى ضربين يمكن أن تكون فكرة جيدة،حيث إنها تؤكد أصالة المبدع ، وتدعو إلىالإصابة فى إبراز المعانى ، ولكنه من أجل تحرير هذه الفكرة،والتدقيق فيها يحذر من " الكذب والمحال والفاسد" من المعانى ، ويضرب أمثلة لم تسمع قبله أوبعده(٢)، مما جعل بعض المحدثين ينسب إليه بداية تجميد الذوق وتحويل النقد إلى بلاغة جامدة ، برغم أن هذا الاتجاه كان قد بدأ منذ ابن المعتز ، لكنه لم يكن يعنى لا عند ابن المعتز ولا حتى عندالعسكرى الخضوع التام للتقسيمات والقياسات ، فما زال للجانب الفنى والاهتمام به دور واضح لدى العسكرى ، يتضح فيما يذكره من أمثلة لما يستجيد فى كثير من أغراض الشعر؛كالوصف والغزل والمديح وغيره ، كما يذكر أمثلة لما يعاب فى هذه الأغراض ، ويحاول أن يحلل ذلك .

٣ ـ من مقومات الصنعة :

وقد جعل الباب الثالث فى معرفة صنعة الكلام وترتيب الالفاظ ، وما ينبغى استعماله فى الشعر والنثر من حيث التهيوء النفسى لهذه العملية، ونراه هنا يستشهد بصحيفة بشر بن المعتمر التى أشار إليها الجاحظ فى البيانوالتبيين(٣) ويوصى أبو هلال مع بشر بانتهاز فرصة التهيوء النفسى للإبداع

---

(١) السابق نفسه ، ص ٧٦.

(٢) د. محمد مندور ـ النقد المنهجىعند العرب ـ ص ٣٢٣-٣٢٤

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ،ط دار الكتب العلمية بيروت . ص ٧٥.

ووجوب رعاية مقتضى الحال ، كما يوصى ببعض الأمور فى كتابة الشعر والنثر ، من حيث تلاؤم الألفاظ والتثقيف والمعاودة ، واجتناب الضرورات الشعرية ، ونراه يحدد للكاتب بعض المعانى التى يستحسن أن يكتبها فى باب الشكر أو الاستعطاف أو الاعتذار وغير ذلك ، وهو فى هذا الباب يجعل للشعر المحل الأول فى الفضل ، ولعلنا ندرك هنا كيف يتجاور الاتجاهان الفنى والقاعدى القياسى ، ويمكن أن يعد ذلك امتدادا لما رآه ابن طباطبا فى هذه الناحية .

٤ ـ وفى الباب الرابع يتحدث عن حسن النظم وجودة الرصف والسبك سواء كان الفن المتناول رسالة أم خطبة أم شعرا ، وهو يعرف حسن الرصف بوضع الألفاظ فى مواضعها ، وسوء الرصف بتقديم ما ينبغى تأخيره وصرف الألفاظ عن وجوهها ومخالفة الاستعمال[١] ، وهنا نراه يشير إلى أن المعاظلة من سوء النظم ويستشهد برأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى زهير من حيث إن هذا الأخير لا يعاظل بين الكلام[٢] ، ويضرب أمثلة كثيرة لما يستحسن وما يعيب من مأثور الشعر العربى ، فهذا الباب يختص بالكشف عن بعض سمات الشعر الجيد وعيوب الردىء .

٥ ـ وقد جعل هذا الباب الخامس للحديث عن الإيجاز والإطناب والمساواة ، التى جعلها المذهب المتوسط عندما تكون الألفاظ قوالب للمعانى دون زيادة بعضها على بعض[٣] ، وأشار إلى نوعى الإيجاز وهما إيجاز القصر وإيجاز الحذف ، كما وضح مفهوم كل مصطلح ، وضرب الأمثلة العديدة الكاشفة عنه ، وبين أن

---

(١) الصناعتين ص ١٦٧ .

(٢) السابق نفسه ص ١٦٨ .

(٣) السابق نفسه ص ١٨٥ .

للإيجاز وللإطناب مجالات ، وأن الكاتب يحتاج إليهما،وهو نفس ما رآه الجاحظ بالنسبةللإيجاز والإطناب .

وإذا كانت فكرة الإيجاز والاطناب " يمكن أن تتصل بالصياغة الفنية بأكثر من سبب ، فإن المساواة لا يمكن ردها إلا إلى القسمة العقلية ، حيث يتعذر فى مجال الصياغة التعامل مع المساواة ، إذ كيف نحكم بأن الألفاظ مساوية للمعانى فى هذا النص ومن الذى يحكم ؟ وعلى أى أساس ؟
ولذلك فقد أهمل المساواة بعض البلاغيين كالجاحظ مثلا .

٦ ـ فى الباب السادس تحدث عن السرقات الشعرية من حيث حسن الأخذ وحل المنظوم ، وبين أن الأخذ الحسن يكون عندما يعمد الأديب إلى معنى ويكسوه ألفاظا جيدة ، بينما هناك من يأخذ المعنى بلفظه وهذا معيب ، وقد أثنى بعض النقاد على هذه الفكرة،بينما رفضت من قبل بعضهم(١)، مع أنها تكشف عن أهمية الصنعة فى الفن وهو اتجاه مقبول ، فجودة الصياغة تسهم فى الكشف عن الأصالة عندما يكسى المعنى ألفاظا جيدة. هذا برغم أن المعانى قلما تتفق إذا تباينت الصياغات الفنية لها ، تبعا لما توحى به من دلالات ومعان هامشية.

٧ ـ خصص العسكرى الباب السابع للتشبيه ، عرفه وذكر أوجهه ، وأساس التشبيه الجيد وعيوب التشبيه القبيح .

واهتمام أبى هلال وابن طباطبا وغيرهما من البلاغيين بالتشبيه إنما يكشف عن أهمية التصوير فى التعبير، كما أوضحنا سابقا ، وإن لم نجد محاولات لهم تتبع أثره فى البناء ككل .

---

(١) د. محمد مندور ـ النقد المنهجى عند العرب ،ص ٣٢٩.
د. محمد غنيمى هلال ـ النقد الأدبى الحديث ،ص ٢٣٩.

٨ ـ الباب الثامن فى ذكر السجع والازدواج ، وقد تحدث فيمزاياهما وعيوبهما مع ضرب الأمثلة الكثيرة الكاشفة عن وجهة نظره ، وهى أمثلة مأخوذة من القرآن الكريم،وحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ومأثور الشعر والنثر.

٩ ـ وقد جعل الباب التاسع لفنون البديع وهى عنده خمسة وثلاثون فنا ، جعل لكل منها فصلا بادئا بالاستعارة والمجاز ومنتهيا بالتلطف .

ويستخدم أبو هلال العسكرى لفظة البديع بمعناها العام. أى كل جديد طريف ، كما استخدمها ابن المعتز ،سنة ٢٧٤ هـ من قبل فى كتابه البديع ، وأشار مثله إلى أن هذه الفنون ليست من ابتكار المحدثين ، وقد قام بشرحها مبينا مزايا كل فن وعيوبه،وقد حذر من كثرتها فى الكلام، كما بين أنه زاد فى هذه الفنون على ما أورده سابقوه ستة أنواع هى: التشطير والمحاورة والتطريز والمضاعف والاستشهاد والتلطف(١)، وإن كان يشير فى نهاية هذا الباب إلى أن جملة ما زاده عشرة فصول مضيفا إلى الستة السابقة: المشتق ، الخبر والوصف بلفظ الاستفهام ، وحسن الرد والتخيل .

وثمة سؤال : لماذا أفرد الباب الثامن بالسجع والازدواج ولم يجعله فصلا من هذا الباب ؟ مع أنه خلال هذا الباب التاسع قد يشير إلى اشتراك بعض الأمثلة بين هذه الفنون ، كما فعل فى التشطير عندما يقول : " وقد أوردت من هذا النوع فى باب الازدواج ما فيه الكفاية".(٢)

---

(١) الصناعتين ، ص ٢٧٣.

(٢) السابق نفسه ص ٤٢٨.

وهو سؤال قد لا نجد له جوابا عند العسكرى أو غيره ممن تناولوا كتاب الصناعتين ، لكنه يكشف عن التداخل بين فنون البديع من جهة ، ومن جهة أخرى يوضح زعم من اعتبروا هذا الكتاب بداية لجمود البلاغة العربية، وتحول النقد إلى بلاغة ، متخذين من كثرة التقسيمات ، وكثرة ألوان البديع منطلقا لزعمهم ، بالنسبة لأبى هلال ، وبالنسبة لتصورهم غير الصحيح عن البلاغة العربية .

وربما كانت محاولة استقصاء صور البلاغة العربية هى دافع أبى هلال إلى كل ما سبق ، بالإضافة إلى أن فكرة منطقة العلوم العربية ، ووضع الحدود والتعريفات منذ قدامة بن جعفر الذى تأثر به العسكرى ـ قد بدأت تنتشر حينئذ . وهى فكرة قد بدأت تأخذ طريقها إلى كل العلوم والمعارف فى ذلك الوقت لتمثل مرحلة من مراحل تطور الفكر العربى .

وقد يطامن من زعم هؤلاء الزاعمين الأمثلة الكثيرة التى أوردها أبو هلال من القرآن الكريم ، ومأثور كلام العرب شعره ونثره ، ومحاولة عرضها بذوقه ، والتدليل بها على وجهة نظره فى شىء من التحليل الفنى البسيط .

لكن الشىء الذى يمكن أن يؤخذ على منهج العسكرى هو افتقاره إلى نظرة كلية تربط بين كل ما قدمه فى إطار نظرية بلاغية نقدية .

كما أن الإسراف فى عرض صور البديع التى أوصلها إلى خمسة وثلاثين فنا أدى إلى المماحكات اللفظية التى سوف تفسد الأدب فيما بعد ، لا سيما عندما أصبح التبارى فى الإكثار من هذه الألوان هدفا أساسيا للشعر فى عصر البديعيات .

١٠ ـ وجعل العسكرى الباب العاشر للحديث عن حسن المبادى والمقاطع فى الكلام وجودة القوافى ،ودقة الخروج من النسيب إلى المديح وغيره .

ويمكن أن تعد هذه الملاحظات إشارات إلى فكرة الوحدة فى العمل الفنى ، التى أشار إليها ابن طباطبا قبله ، بل ويمكن أن تكون تدعيما لها وإن ظهرت لدى العسكرى فى صورة التشكيل والبناء ، ولكن دون تعميق لأبعادها فى العمل الفنى ، فمازال القرن الرابع الهجرى على ولاء للتجزئة فى مجال التطبيق ، حيث يؤمنون بالوحدة فى مجال التنظير ولا نجد صدى لذلك فى مجال التطبيق وتناول النصوص .

ويلاحظ أن أبا هلال قد استقصى فى كتابه الصناعتين أكثر صور البلاغة العربية ، التى وجدها عند السابقين حتى عصره ، كالجاحظ والرمانى وابن المعتز وقدامة والباقلانى ، وخاله أحمد العسكرى ، كما كان لأسلوبه الذى يأتى فيه بما يستجيد وما يعيب أثر فى رفع قيمة عمله ، لا سيما عندما يحلل ما يأتى به من أمثلة ، وبرغم أنه على ولاء كبير للقسمة العقلية ، لكنها لم تفرغ كتابه من اهتمامات متعددة بالنواحى الفنية وقيمتها التعبيرية ، حيث يبدأ فصوله بحديثه عن المعايير والأقسام والتقسيمات ، لكنه لا يفرغ من هذه الفصول حتى يكون قد أشار إلى بعض النواحى الفنية لما رآه من تقسيمات ،وهذا ما جعلنا نضع كتابه تحت العنوان الذى ذكرناه له ، بل يمكن أن تزداد هذه الفكرة جلاء إذا قارنا كتاب "الصناعتين" مثلا بكتاب " مفتاح العلوم " للسكاكى الذى سوف نراه أشكالا منطقية مقننة ، لاحظ للفن فيها .

شمولية النظرة في كتاب

"العمدة" لابن رشيق

شمولية النظرة فى كتاب "العمـــــدة" فى محاسن الشعر وآدابه ونقـده

لابن رشيق القيروانى(*) (ت ٤٦٣ هـ)

هدفـــــه :

يتألف هذا الكتاب من خطبة ، وجزئين يتألفان من مائة باب وسبعة ، فى خطبة الكتاب يبين أنه ألفه من أجـــل أن يهديه إلى أبى الحسن على بن أبى الرجال الأديب(١)، وقـــد أثنى ابن رشيق على هذا الرجل ثناءا كثيرا، كما أورد خـــلال الكتاب شواهد من شعره .

كما يشير إلى أنه ألف هذا الكتاب ليكون "عمدة" لمن اختلفوا حول الشعر ، ولمن لم يحسنوا الحديث عنه ، ولذلك فقد جمع أحسن ما قيل ،وعول على قريحته فى كثير ، أما ما تعلق بالخبر وضبطته الرواية فقد التزم لفظه ومعناه إحقاقـــا للحق .

مكانة الشعر والشاعر:

ويتحدث ابن رشيق فى الجزء الأول من كتابة عن فضـــل

(*) هو أبوعلى الحسن بن رشيق القيروانى، ولد عام ٣٩٠هـ ،وقد كان أديبا وشاعرا ولغويا ، وله كتب أخرى مثل: الشذوذ فى اللغة، و" قراضة الذهب" وغيرهما.

(١) العمدة ج ١ ، ط . دار الجيل ،بيروت ـ تحقيق محمـــد محيى الدين عبد الحميد ص ١٥.

الشعر فيبدأ بتفضيله على النثر لما فيه من وزن وصنعة ، وقد دافع عن الشعر مستشهدا بقول الرسول عليه الصلاة والسلام : " إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكما أوحكمة"(١)كما أن الاسلام لم يحرمه بدليل سماع الرسول عليه الصلاةوالسلام له ،وحثه على ما وافق الحق منه ، وكذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم ، وهو يدلل على ذلك بأخبار كثيرة عنهم ، كما ينسب أبياتا لبعضهم ، وكذلك أبياتا لبعض الفقهاء والقضاة ، وقد أشار إلى بعض من رفعهم الشعر وبعض من حط من قدرهم ، وإلىأن بعض الشعراء قد يسمى بلفظة جاءت فى شعره كمسكين الدرامى ، والنابغة لقوله :" فقد نبغت لنا منهم شئون".(٢)

كما أشار إلى بعض شفاعات الشعراء وتحريضهم ،وأهمية الشاعر ومكانته واحتماء قبيلته به ، وذكر بعض من جنىعليهم شعرهم ، وبعض من نفعهم ، وبعض من تكسب بالشعر، ومن أنف من ذلك . ثم يبحث فى اشتهار بعض القبائل بالشعر واشتهار شعراء بأعيانهم.

ويمكنأن يعد دفاعه عن الشعر توطئة لما سوف يقدمه عبد القاهر الجرجانى فى كتابه " دلائل الاعجاز"،من دفاع عن الشعر كما سوف يتضح .

ويتعرض للحداثة والقدم، وينظر إلى العلاقة بينهما على أساس أن المحدثين يكملون القدماء بعد أن يستفيدوا منهم ، وإذا جاز للقديم استخدام الإغراب لم يجز ذلك للمحدث ، فهو أرق وأحسن ديباجة ، وهذا إدراك واع منه للمتغيرات الحضارية وأثرها فى الإنسان وما يبدعه .

---

(١) السابق نفسه ، ص ٤٧.

كما يشير إلى بعض مشاهير الشعراء كامرئ القيس وزهير والنابغة والحطيئة وجرير والفرزدق وذى الرمة، وابن المعتز، وإن لم يكن مقياس الشهرة عنده مبررا فنيا ، لكنه يستشهد ببعض أقوال سابقيه على ذلك .

"المعاظلة" كمثال لتطور الفكرة البلاغية:

وهنا نحب أن نشير إلى فكرة تكشف عن كيفية تطورالبحث البلاغى ،حيث قد استشهد ابن رشيق برأىعمر بن الخطاب رضى الله عنه فى زهير بن أبى سلمى:" كان لا يعاظل بين الكلام ولا يتتبع حوشيه ولا يمدح الرجل إلا بما فيه (١)، وهو ناقل له عن ابن سلام(ت ٢٣٢ هـ) ، لكنه يناقش هذا القول فيلاحظ أولا تناقض ابن سلام لأن هذا الأخير أضاف : " قال أهل النظر: .... كان زهير أحصفهم شعرا... وأشدهم مبالغة ، إذ كيف يجتمع فى زهير المبالغة والصدق، الذى استحسنه فيه عمر رضى الله عنه لذاته ، ولما فيه من مكارم الأخلاق حيث يبين أنه لايمدح الرجل إلا بما فيه استحسانا لصدقه ،ومن هنا يحاول أن يبعد زهيرا عن المبالغة.(٢)

---

(١) السابق نفسه ، ص ٩٨.

(٢) السابق نفسه ، ص ٩٩ وانظر محمد بن سلام الجمحى ، طبقات فحول الشعراء تحقيق محمود محمد شاكر ط مطبعة المدنى القاهرة سنة ١٩٧٤ ص ٦٣ .

وانظر ص ١٠٩، ص ١١٦ من هذه الدراسة.

ولقد تعرض لفكرة المعاظلة كثيرون منهم قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) حيث فسر المعاظلة بأنها فاحش الاستعارة، ثم جاء العسكري (ت ٣٩٥ هـ) فى الصناعتين وأطلقها على ما سمى فيما بعد باسم التعقيد اللفظى ، وعدها من سوء النظم[١] إلى أن ناقشها ابن رشيق كما سبق ومن هذا نرى كيف تتواصل الأفكار البلاغية وتتكامل متطورة .

مفهوم الشاعر وعناصر الشعر:

وهكذا يستمر ابن رشيق فى هذه المقدمات حتى يصل إلى الحديث فى " الشعر والشعراء" ، ويقدم تقسيما لهم ما بين جاهلى قديم ومخضرم وإسلامى ومحدث ، ويحاول توضيح كل تسمية، وهو تقسيم أساسه النظرة التاريخية لا الفنية، وكم كنا نود أن تكون الثانية هى الأساس ، لا سيما وقد سبقه ابن سلام فى طبقاته بأكثر من قرنين من الزمان واختط منهجا فى هذا الصدد من عمله الزمان والمكان .

ثم يبين ابن رشيق أن الشاعر إنما سمى شاعرا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره ، فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ، أو استظراف لفظ وابتداعه ، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعانى، أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر ، كان اسم الشاعر عليه مجازا"[٢] وذلك لعمرى تعريف جيد للشاعر يكشف عن

---

(١) الصناعتين ص ١٦٧ ، ص ١٦٩ وانظر هنا ص ، وانظر قدامة بن جعفر نقد الشعر تحقيق محمد كمال مصطفى ط٣ نشر مكتبة الخانجى القاهرة سنة ١٩٧٩ ص ١٧٧.

(٢) العمدة جـ ١ ، ص ١١٦.

إدراك ابن رشيق لابعاد ما يتميز به الشاعر من موهبة وصنعة ، ويلتقى مع ما يقوله المحدثون من أن الشاعر هو من يشعر بجوهر الأشياء ، من ثم يحدثنا ابن رشيق عن دور الحواس وما تثقفه فى صناعة الشعر ، وأن الشعراء أخبر بصناعتهم ممن يملكون أدوات الشعر كاللغوى والنحوى والعروضى .

وإذا كان فيما سبق يميل إلى الاعتداد بالقيمة الفنية للشعر غالبا ، فلا يلبث أن يتضح لديه الاتجاه نحو التقعيد والقياس وذلك عندما يحدد ابن رشيق عناصر الشعر بأنها : النية واللفظ والوزن والمعنى والقافية.(١)

ثم يفصل الحديث فيها لكنه خلال ذلك ينسب قولا للرمانى: "أكثر ما تجرى عليه أغراض الشعر خمسة: النسيب والمدح والهجاء والفخر والوصف ، ويدخل التشبيه والاستعارة فى باب الوصف"(٢) وربما كان هذا من قبيل الحديث عن بلاغة الشعر ، وإن كنا نتساءل لم يخص الوصف فقط بالتشبيه والاستعارة وهما موجودان فى كل أغراض الشعر؟ وربما كان يقصد أنهما يكثران فى الوصف لأنه يستشهد بعد ذلك بقليل بأن الشعر" ما اشتمل على المثل السائر والاستعارة الرائعةوالتشبيه الواقع".(٣)

الشعر قيمة وصنعة :

كما يناقش قضية اللفظ والمعنى فيؤكد تلازمهما ، فاللفظ جسم روحه المعنى ، ثم يأخذ فى مناقشة من يؤثر

---

(١) السابق نفسه ، ص ١١٩.
(٢) السابق نفسه ، ص ١٢٠.
(٣) السابق نفسه ، ص ١٢٢.

بالأهمية أحد هذين الجانبين على الآخر لينتهي إلى رأيه المشار إليه ، حتى إنه ليعد ما يوصف به أحدهما وصفا للآخر .

ومن هنا يتحدث عن الشعر المطبوع والمصنوع فيبين أن الأول هو الأصل ، كما يسوى بين مذهبى أبى تمام والبحترى فى أنهما كانا يطلبان الصنعة ويولعان بها ، وإن كان أبو تمام اكثر بديعا ، والبحترى أكثر طبعا ، ويستشهد بقول ينسب لبشار إنه أول من فتق البديع (١). كمايحذر من الإكثار فى الصنعة .

وربما كان اتجاه ابن رشيق فى التسوية بين مذهبى أبى تمام والبحترى فيه تجاوز لما عرف عن الشاعرين من أن البحترى كان أكثر طبعا، وهو ما اعترف به ابن رشيق نفسه فى هذه الفقرة .

وقد عقد بابا فى أوزان الشعر أشار فيه إلى أهمية الوزن فى الشعر ، حيث يجيده المطبوع دون معرفة بالأوزان ، وعللها ، كما بينأن الخليل بن أحمد هو أول من ألف فى العروض ، ثم تحدث فى بحور الشعر وأجزائها وزحافاتها وعللها ، كما تحدث عن القافية وأهميتها ، وحدها، وعيوبها، هذا وقد أشار إلى الفارق بين الرجز والقصيدة والقريض ، ولعلنا نلاحظ محاولة الإحاطة بصنعة الشعر من خلال الحديث عن عناصر الشعر ، ومقوماته من وزن وقافية، وهو ماحاوله من قبل ابن طباطا ، وأبو هلال، بدرجة أقل وإن كان ابنرشيق يتميز عنهما بنظرةفنية أكثر شمولا وإحاطة بجوانب عملية الإبداع ومقوماتها.

---

(١) السابق نفسه ، ص ١٣١.

التهيوء الفكرى والنفسى للعطاء الفنى :

وقد عرض للبديهية والارتجال فى الشعر، وبعض من اشتهروا بذلك ، كما أشار إلى حاجة الشاعر للثقافة والعلوم وحفظ الشعر وروايته، ومعرفة أنساب العرب وأيامهم(١)، وبعض ما يجب أن يكون عليه الشاعر من آداب .

ويعقد ابن رشيق بابا فى عمل الشعر وشحذ القريحة، يعرض فيه طريقة جماعة من الشعراء فى النظم ، فيشير إلى بعض الدوافع التى تعين على إجادته ، كصفاء الذهن، وخلو المكان ، وجودة الطعام ، والغناء والرغبات أو الميول المختلفة من طمع أو رهبة ، كما تتضح أهمية الغناء بالشعر، عندما يبين أنه من العوامل التى تساعد على جودته ومطاوعته، إذ به يمكن أن يستعيد الشاعر تدفقه الذهنى،ليستمر" تيار الوعى" (٢)، فى نظر المحدثين .

وقد أشار إلى صحيفة بشر بن المعتمر(٣) التى سبق وأن ذكرها الجاحظ(٤)،حيث يتحدث بشر فيها عن الإبداع ومتى يجود ، ووجوب رعاية عدم التعقيد فى الكلام ، وأنه لكل مقام مقال .

كما تحدث ابن رشيق فىجودة المقاطع والمطالع ، وحسن الخروج فى القصيدة ونهايتها ، ومايعاب من ذلك ، موضحا

---

(١) يذكرنا هذا بما ذكره ابن طباطبا فى عيار الشعر فى هذا الصدد (انظر ص ٨٩ من هذه الدراسة) ومابعدها.

(٢) العمدة ، ص١٢ ، ص ٢٠٤ ومابعدها.

(٣) للمزيد من التعرف على فكرةتيار الوعى: انظر القصة السيكولوجية لليون إيدل ترجمةد. محمود السمرة- منشورات المكتبة الاهلية، بيروت سنة ١٩٥٩م ص ٣٧ وكذلك انظر تيار الوعى ، ترجمةد. محمود الربيعى.

(٤) العمدة ، ص ٢١٢.

ما سبق بأمثلة من الشعر العربى توضح الجانبين : الجـــودة والرداءة .

ثم عقد بابا " للبلاغة" وتعريفاتها وحدودها التـــى نقلها عن سابقيه، وتلى ذلك بحديثه فى "الإيجاز" وإن جعـــل المساواة أحد ضروبه ، ثم" البيان" الذى عرفه ومثل لـــه بأمثلة من القرآن الكريم وكلام رسول الله عليه الصلاة والسلام، وصحابته رضوان الله عليهم ، ومن الشعر.

ومن اللافت للنظر أن معظم من تعرض من البلاغيين العرب لمفهوم البلاغة كان يقدم عدة تعريفات له ولغيره ، فلمـــا تقدم وجهة نظر متكاملة للبلاغة الفن ، لكن كل تعريف على حده، يمكن أن يتناول قضية تمس جانبا من جوانب الإبداع.

وينقل ابن رشيق فى باب النظم رأى الجاحظ فى أن أجـود الشعر ماتلاحمت أجزاؤه ، وأن هناك معان لا تكاد تفترق فـــى القرآن الكريم كالصلاة والزكاة، والجوع والخوف ، مشيـــرا بذلك إلى وجوب وضع كل لفظة فى موضعها الذى لا تعدوه ، وقـــد تتقارب مخارج الحروف فتثقل الكلمات ، كما يشير إلـــى أن من حسن النظم عدم التشبيج وهو لون من المعاظلة.(١)

وفى الوقت الذى يشير فيه إلى أن بعض النـــــاس تستحسن الشعر مفضلا بعضه على بعض يستحسن هو أن يكون كل بيت قائما بنفسه ، وهو بذلك يخضع للمتعارف عليه مما يرتبط ببيت القصيد ونحوه ، ثم يفرق بين اختراع المعانى وتوليدهـــا ،

---

(١) الجاحظ البيان والتبيين ، ط دار الكتـــب العلمية ، بيروت ص ٧٥

كما يبين أن الاختراع للمعانى ، والإبداع للألفاظ .(١)

وهذه التجزئة فى النظر إلى القصيدة يمكن أن نعتبرها ردة بالنسبة لما حققه ابن طباطبا ، وأبو هلال فى هذا الصدد، ولكن ابن رشيق سوف يذكر بعد قليل نما للحاتمى فى القرن الرابع، يشيد بوحدة القصيدة،من هنا فإن هذا الاتجاه يمكن أن يكشف عن الانفصال بين النظرية والتطبيق فى النظرة إلى القصيدة، عند بعض من يعرفون لذلك من البلاغيين، وربما كان مرد هذا الموقف المزدوج الاهتمام بالقياس ، والخضوع لفكرة بيت القصيد .

البديع :

وقد أشار إلى كثرة ضروب البديع ، وإلى أن ابن المعتز أول من جمعها ، وقد بدأ فنونه بالمجاز فعرف معناه ، وبين أنه أبلغ من الحقيقة ، ثم تلاه بالتشبيه فالكناية والاستعارة التى بين حدودها، وأشار إلى المختار منها ونماذج لها من القرآن الكريم ، كما بين أن التمثيل أو المماثلة ضرب من ضروبها ، كما جعل بابا للمثل السائر ، ويعود للحديث فى التشبيه مرة أخرى ولكن بتفصيل أكثر فيعرفه ،ويبين حده وفائدته ،وأنواعه وأفضله وأدواته وصوره المختلفة ،وهو كما نرى اتجاه نحو القياس لا سيما فى أنواع التشبيه وصوره .

كما تحدث عن الإشارة التى جعلها تتضمن أنواعا عدة منها : التفخيم والإيماء والتعريض والتلويح والكناية والتمثيل والرمز واللمحة واللغز واللحن والحذف والتورية ، والتتبيع الذى خصه بباب مستقل وربما كان يعنى به الكناية .

---

(١) العمدة ص ٢٦٥ .

ولعل من الملاحظ هنا أن تعدد التسميات وكثرتها ربما لارتباط هذه الاسماء بملاحظات خاصة وليست عامة ، كما أن بعض هذه التسميات قد تتداخل دون أن تكون علما على فن بعينه له خصائصه وسماته المحددة ، ولكنها في نفس الوقت تسميات تدل على دقة ملاحظاتهم وفنيتها ، لأن كلا منها يرتبط بأسلوب معين أو صياغة معينة لفكرة من الأفكار.

كما تحدث في التجنيس والترديد ، ويلاحظ في كل ماسبق أنه غالبا ما يضرب أمثلة لما يستجاد منه ، وما لا يقبل ، كما يلاحظ التداخل أحيانا ،كما في أنواع الإشارة، والتمثيل والمثل ، وهو يتناول كل ذلك تحت اسم البديع ،مما يكشف عن أن مفهوم ابن المعتز الذي كان للبديع بمعنى الطريف أو الجديد في القرن الثالث الهجري، مازال المستخدما على هذا النحو، في القرن الخامس الهجري قرن ابن رشيق . وهكذا ينتهي الجزء الأول من كتاب العمدة .

أما الجزء الثاني فيبدأ بالحديث عن التصدير وهو رد العجز على الصدر، ثم المطابقة فالمقابلة يليها التقسيم ، والتسهيم الذي يسميه قدامة التوشيح ، والتفسير، والاستطراد والتفريع ، والالتفات ، والاستثناء ، والتتميم ، والمبالغة ، والإيغال ، والغلو ، والتشكك ، والحشو وفضول الكلام، والاستدعاء وهو ما يختم بالقافية ، والتكرار، وهكذا يدرس ابن رشيق كل فنون البديع عند سابقيه ، مشيرا إلى من أخذ عنهم ، وإلى ما بينهم من اختلاف إن وجد ، مقارنا بين أقوالهم ، محذرا من الإكثار، وقد أضاف فنونا منها :

- الاتساع : ويقصد به إمكانية البيت في أن يؤول عدة تأويلات ، لاحتمال اللفظ وقوته واتساع المعنى.

- والاطراد : وهو أن تطرد أسماء الممدوح من غير كلفة.
- ونفي الشيء بإيجابه ، وهو ضرب من المبالغة.
- والتفريع : لون من الاستطراد ، وذلك عندما يقصد الشاعر وصفا ثم يفرع منه وصفا آخر يزيد الموصوف تأكيدا.
- والترديد: وهو لون من التجنيس أو المجاورة عند أبي هلال
- والتتبيع : نوع من الإشارة يدخل ضمن الكناية .

وبعض هذه الفنون سبق وأن أشار إليها في نهايات الجزء الاول كما مر ، وربما كان دافعه إلى هذا التكرار أو إعادة الإشارة إليها ، حرصه على أن يبرز هذه الفنون كألوان جديدة من التعبير ، وتأكيده على الكشف عما أضاف من هذا الذى كان يعد طريفا جديدا في الصياغة حينئذ.

عودة إلى الحديث عن أغراض الشعر ودواعيها:

وعندما يعود للحديث عن الشعر يبين أن الشاعر الذى يحوز قصب السبق هو المتصرف القادر على البراعة في كل فنونه، كما يشيد بشعر أدباء الكتاب كابراهيم الحولى ومحمد عبد الملك الزيات ، ونراه يستشهد بشعر يستدل به على رأيه، كما يذكر وصية أبي تمام للبحترى باختيار أنسب الأوقات للإبداع ، وما يتناسب مع كل غرض من ألفاظ ومعان، والتزام الأعراف المرعية.(١)

---

(١) العمدة : ج ٢ ، ص ١١٤ ، ١١٥.

ومن خلال ما سبق تتضح محاولة ابن رشيق الإحاطة والشمول فيتناوله لفن الشعر من حيث أغراضه ووسائله، وأعرافه الفنية وتقاليده المرعية كبناء لغوى فى بيئة اجتماعية، وأنسب الأوقات نفسيا وفكريا لتحقيق ذلك .

أغراض الشعر :

لذلك عندما ينتقل إلى الحديث عن كثير من أغراض الشعر، كالنسيب والمديح والرثاء والافتخار والعقاب، والوعيد والإنذار والهجاء والاعتذار والوصف، نجده يعرفها ويذكر فى شمول وإحاطة ما يناسب كل غرض منها فى اللفظ والمعنى، كما يذكر نماذج لما يستحسن لمشاهير الشعراء. وإذا كان يدعو إلى حسن الخروج من النسيب إلى ما يليه من أغراض، فإنه يدلل على ذلك بنص للحاتمى يعتبر تفكيرا متقدما لعصريهما حيث يشترط امتزاج وتلاحم أجزاء القصيدة واتصالها اتصالا عضويا، يقول الحاتمى: " من حكم النسيب الذى يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجا بما بعده من مدح أو ذم، متصلا به، غير منفصل عنه، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه، وتعفى معالم جماله "(١)، ويمكن أن تعتبر هذه الفكرة تنمية وامتدادا لما سبق أن أشرنا إليه عند ابن طباطبا فى " عيار الشعر" فى هذا الصدد.(٢)

ونراه يتابع قدامة بن جعفر فى بيان أهمية المديح بالفضائل النفسية من عقل وعفة وعدل وشجاعة، بل ويفضل

---

(١) السابق نفسه، ص ١١٧.

(٢) انظر هذه الدراسة ص ٩٠ ومابعدها.

الحديث فيما يدخل تحت كل نوع من هذه الأنواع الأربعة من فضائل.(١)

وفى تصورى أن محاولة تحديد أغراض للشعر ، حتى ولو كان هذا التحديد مبنيا على أسس معيارية يلتزمها السابقون، إن هى إلا محاولة للحد من طموحات الشعراء، لا سيما المبدعين منهم الذين يحاولون التفرد والابتكار، لذلك فإن ابن رشيق نفسه يعجز عن الاسترسال فى هذه التحديدات ، ويبين فى حديثه عن الوصف فى نهاية هذا الجزء الثانى أنه باب يرجع إليه أكثر الشعر ، ففيم إذن يكون التحديد ؟ أظن هى محاولات لتعليم الراغبين فى هذا الفن ، وليست للمقتدرين .

ومما يؤكد هذا الاتجاه التعليمى مثلا أنه يذكر نماذج فى وصف آلات كالأسطرلاب .....، .... وهكذا يبلغ الأمر فى حديثه عن الوصف .. وصف بعض الآلات فى نهاية هذا الجزء .

من مظاهر الشمول :

واستمرارا لاتجاه الإحاطة والشمول الفنى فى هذا الكتاب، تتوالى أبواب بعد ذلك يتحدث فيها عن الوسائل التى يجب على الشاعر معرفتها، كنماذج من أشعار بعض من سار شعرهم بين الناس ، وهو يتصل بباب سابق هو مشاهير الشعراء، وبعض أنساب العرب ، وشيء من أيامهم ووقائعهم، وبعض الملوك الذين ارتبط ذكرهم بعبارة قيلت فيهم لأول مرة فيعرب ابن قحطان مثلا من ملوك اليمن هو أول من حيى ب" أبيت اللعن".

ومما يكشف عن وعى بن رشيق إدراكه لأثر المتغيرات فى تطور الفكر ، وذلك عندما يبين أن المعانى تكثر كلما تقدم

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ١٣٠ ومابعدها.

العصر ، وهنا يذكر بعض المعانى المستحدثة" لبعض المولدين، كابن الرومى وبشار وغيرهما ، كما يصح فى باب خاص - بعض أغاليط الشعراء والرواة ويوضح بعض تقاليد العرب وأعرافهم التى يرد ذكرها فى الشعر كالفأل والطيرة وغيرهما.

وإذا كان ابن رشيق يقرر أنه لا خير فى الضرورة، فإنه يذكر فى باب " الرخص فى الشعراء"، بعض ما يضطر إليه الشاعر من تجاوزات نحوية ولغوية، ولكنه حذر منه . هذا وقد عقد ابن رشيق بابا للسرقات الشعرية ، ونفى أن يدعى السلامة منها أحد ، كما أشار إلى بعض مجالاتها وأنواعها، وقد استفاد مما كتبه الجرجانى فيها.

وبرغم أن ابن رشيق حاول عرض آراء سابقيه وجمعها، ولكن مما يذكر له محاولته الدقيقة فى الإحاطة بكل مايتعلق بالشعر وسيلة وغاية، وجمع الآراء المتقابلة فى الفنون المختلفة، ومحاولة المقارنة بينها- وإن كان الربط بين كل هذه المادة الغزيرة يبدو مفقودا بجانب ما يمكن أن يلحظ من تداخل أحيانا بين الأبواب .

والكتاب بعد ذلك تمثيل للمؤلفات التى يتجاور فيها البلاغة والنقد والأدب ، مما يكشف عن وجهة نظر السابقين فى التلاحم بينها وأهمية ترابطها فى جلاء الشعر كفن .

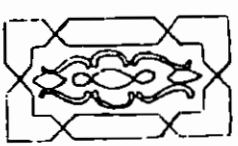

الرؤية البلاغية للفن

في كتاب "سر الفصاحة" للخفاجي

الرؤية البلاغية للفن فى كتاب سر الفصاحة

لابن سنان الخفاجى(١)

وقد عنى فيه بتفسير الفصاحة وما تقوم عليه ،ويتألف من مقدمة وثمانية فصول ... ويتضح من عنوان هذا الكتاب أن المدخل لفهم الفن هو فصاحته... ويتأكد هذا

الاتجاه بمجرد الاطلاع على مقدمته،حيث يشير فيها ابن سنان إلى الهدف من تأليفه لهذا الكتاب ألا وهو بيان فائدة الفصاحة فى تبين جيد الكلام من رديئه ، وفى معرفة بلاغة القرآن ومايتصل بذلك من إعجازه ، حتى عند من يقولون بالصرفة(٢)، لأنهم سوف يتحققون مما يزعمون أنه كان فى مقدور العرب وصرفهم الله عنه. كما يشير إلى بعض الموضوعاتالتى سيتناولها كتمهيد لموضوعه .

إيحاء الصوت ودلالته :

وقد تحدث فى الفصول الثلاثة الأولى عن الصوت والحرف والكلام وأورد كثيرا من المعلومات الصوتية، التى تتعلق بالمخارج وأنواعها ، وأسباب اختلاف الحروف ، والمهموس

---

(١) هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلبى المتوفى سنة ٤٦٦ هـ .

(٢) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ط مكتبة ومطبعة محمد على صبيح سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م تحقيق عبد المتعال الصعيدى ص ٤.

والمهجور منها ، وتألف الكلام من هذه الحروف ، وقد حاول فى عرضه الربط بين الصوت وإفهامه للمعنى ، وهو متأثر فى هذه الفكرة برأى اللغويين كابن جنى وغيره فى هذا الصدد ، وهو اتجاه يقوم على دعم التركيز على النص كمادة لغوية للوصول إلى بنائه بصفة عامة ، وما يوحى به من مستويات دلالية وهى نظرة كنا نود أن يوليها عبد القاهر الجرجانى بعد ذلك اهتماما أشد ، لتحقق لفكره البلاغى الفنى آفاقا أرحب فى التعامل مع النصوص .

وفى الفصل الرابع تحدث عن نشأة اللغة توقيفا أم مواضعة ، وهو يميل إلى الرأى الثانى ، كما أشار إلى بعض مزايا اللغة العربية .

وفيما يلى ذلك من فصول يتحدث عن بعض مزايا العربه ثم يفصل حديثه فى الفصاحة والبلاغة .

وإذا كان ما سبق يعتبر مقدمات أو تمهيدا فإنه يبدأ فيجعل الفصاحة خاصة بالألفاظ بينما البلاغة عامة فى الألفاظ والمعانى، فكل كلام بليغ فصيح وليس العكس وهذا يذكرنا بما ذهب إليه العسكرى فى الصناعتين .(١)

معيارية الفصاحة :

ثم يعرف البلاغة تعريفات استمدها من سابقيه ، كما يرد الفصاحة فى الكلمة إلى ثمانية شروط يمكن إيجازها فى: خلوص الكلمة من تنافر الحروف والغرابة، ومخالفة القياس ، كما مثل لذلك بأمثلة كثيرة . ونراه يربط بين فصاحة اللفظ المفرد وفصاحة التركيب ، حيث إنه لابد من توفر شروط فصاحة اللفظة المفردة فى كلمات التركيب، ولكى تكتمل فصاحة هذا التركيب لابد أن تتوفر فيه شروط منها عدم

---

(١) انظر ص١١٤ من هذه الدراسة

مخالفته للعرف اللغوى ، وأن يخلو من التعقيد المعنوى ، واللفظى ، والربط بين فصاحة التركيب ومكوناته من الألفاظ، اتجاه فنى جيد برغم أسسه المعيارية ، التى يتخذها كمدخل للتمور الفنى للعبارة سوف يوليه ابن الأثير بعد ذلك فى "المثل السائر" اهتماما يدعم هذا الاتجاه الفنى فى الكشف عن بلاغة النصوص .

المعايير البلاغية للفصاحة :

وخلال ذلك يرفض ابن سنان تقسيم الكلام إلى متنافر ومتلائم فى الطبقة الوسطى ، ومتلائم فى الطبقة العليا وهو القرآن الكريم ، ويرى أن الكلام إما متنافر أو متلائم ولا واسطة بينهما ، وإن كان كل منهما درجات .. ولا أتصور أن هناك فارقا كبيرا بين ما رفضه وما قرره طالما أن أساس التقسيمين التفاوت، وإنما هى المعيارية بمنطقيتها عندما تشكل الفكرة البلاغية ، ومع ذلك يستطيع الدارس أن يجد كثيرا من القيم الفنية التى أولاها ابن سنان اهتمامه وهو يبحث فى سر الفصاحة وفنيتها ، فهو مثلا يقيم التأليف على أصل منها: وضع الألفاظ موضعها حقيقة أومجازا، وتندرج فيه مباحث كثيرة منها : التقديم والتأخير، والاستعارة والتشبيه، والحشو وجمال السبك ، ورد الأعجاز على الصدور ، وأن تستخدم فى كل غرض الألفاظ الخاصة به ، والكناية ، وخلال ذلك يناقش كثيرا من آراء سابقيه ، كالرمانى والقاضى الجرجانى وأبى بكر الصولى - كما يوظف السمات الصوتية للحروف وتلاؤمها فى بيان قيمة التأليف ، وذلك جهد عظيم يعلى من قيمة هذا الكتاب [1] كما أشرنا سابقا.

---

(١) انظر سر الفصاحة ص ٩١ وما بعدها.

ومن أصول تأليف الكلام فى نظره أيضا: المناسبة بين الألفاظ ، إما من طريق الصيغة وإما من طريق المعنى، ومن المباحث التى تناولها هنا : السجع والازدواج والجناس والطباق والمقابلة ، كما تحدث عن القوافى وحذر من عيوبها كالإقواء ، وقد أوصى الشعراء بحسن البدء والتحرز من التضمين وأيضا ألا يصرعوا إلا فى أول القصيدة، وألايكثروا من الزحافات فى الشعر.

كما تحدث عن الإيجاز والمساواة والإطناب مشيرا إلى أن لكل منها مقاما يطلب فيه ، وقد تحدث عن الغموض واللغز فى الكلام .

ولإيمانه بالصرفة فقد أشار إلى تفاوت فصاحةالقرآن ، ويذكر ابن سنان أن من نعوت البلاغة والفصاحة الإرداف ، والتتبيع والتمثيل ويتصل ذلك لديه بالكنايةوالاستعارة.

ويشير إلى صحة التقسيم وشروط ذلك ، وصحة الأوصاف فى الكلام بحيث يطابق مقتضى الحال ، كما يتحدث عن صحة النسق والنظم والمبالغة فى المعنى والغلو والاحتراس أو التحرز والاستدلال ، ولسنا نبالغ إذا قلنا إن ابن سنان كان حلقة وصل مهمة فى تطور القيم الفنية للبلاغة العربية،لا سيما وهو يولى اهتماما كبيرا لصحة النسق والنظم ورعاية مقتضى الحال والتناسب كأسس لفصاحة التأليف .

ومن الموضوعات التى تناولها ابن سنان فى كتابه هذا المقارنة بين الشعر والنثر،وما يقال من تفضيل أحدهما على الاخر ، وما يحتاج إليه كل من الشاعر والناثر من معرفة بعلوم العربية، وتقاليد الشعر أو الكتابة ، كما أوصاهما بعدم التكلف .

وابن سنان لا شك مستفيد من سابقيه ، لا سيما وهو يشير إلى تباين تقسيماتهم لبعض الفنون البلاغية، وقد ناقش مواقفهم . وقد كان تناوله لكل هذه الفنون البلاغية في إطار حديثه عن سر الفصاحة، الذى يتضمن حسن اللفظ وحسن المعنى،وهو تصور كلى جدير بالاعتبار ، وقد حاول دعمه بحديثه عن الأصوات والحروف ، بطريقة جيدة، يمكن أن تقرب منهجه من الدراسات النقدية الحديثة .

وإذا كانت فنون البديع الأساسية قد ضبطت إلى حد كبير منذ القرن الرابع الهجرى ، فإن علمى المعانى والبيان كانا لا يزالان يفتقران إلى من يحددهما من خلال نظرة كلية شاملة حتى جاء عبدالقاهر فأولى هذا الهدف عنايته بكتابيه : أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز.

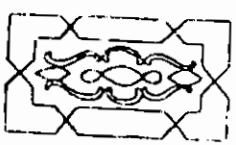

الخصائص الموضوعية للإعجاز القرآني

في كتاب "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني

الخصائص الموضوعية للإعجاز القرآنى
فـــــى
" كتاب دلائل الإعجاز " لعبد القاهرالجرجانى"(*)

مكانة عبد القاهـــر:

يعتبر عبد القاهر الجرجانى من أهم رود البلاغـــة العربية الذين أسهموا فى ازدهارها فى القرن الخامـــس الهجرى ، ويمكن أن يعتبرهذ اهوالتوقيت الزمنى الذى حققت فيه البلاغة العربية مرحلة هامة من مراحل نموها،وتطورهـا بفضل هذا الرجل . وإذا كانت البلاغة العربية قد ازدهـرت فى حضن البحث فى الإعجاز القرآنى فإن عبد القاهربكتابيـه (دلائل الاعجاز ـ وأسرار البلاغة) يعتبر ممثلا هاما فـــى هذا الصدد .

البحث فى الخصائص الموضوعية :

ويتضح من عنوان كتابه " دلائل الإعجاز" ـ بادىء ذى بدء ـ أن الرجل يستهدف البحث فى الدلائل والخصائـــص الموضوعية التى تكشف عن الإعجاز القرآنى ، تلك الخصائص التى يدركها العقل ، ويمكن التعبير عنها ، وهى فى نفـــس الوقت يمكنأن تكون كاشفة أسباب الاستحسان لما نستحســـن، ونستجيد من فنون القول ، وهو بذلك يعلى من شأن القيمـــة الفنية كمرتكز له فى الكشف والبيان وإيضاح المعانـــى يؤ يد ذلك قوله :

"وجملة ما أردت أن أبينه لك أنه لابد لكل كـــلام

(*) عبد القاهر الجرجانى إمام فى البلاغة العربية ،توفى سنة ٤٧١ هـ له بجانب كتابيه "دلائل الإعجاز" ،و"أسرار البلاغة" رسالة فى إعجاز القرآن ،ودراسات فى النحو.

تستحسنه ، ولفظ تستجيده من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة ، وعلة معقولة ، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل ، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل ،وهو باب من العلم ، إذا أنت فتحته اطلعت منه على فوائد جليلة ، ومعان شريفة ، ورأيت له أثرا فى الدين عظيما ، وفائدة جسيمة ، ووجدته سببا إلى حسم كثير من الفساد فيما يعود إلى التنزيل .(١)

ويتألف هذا الكتاب من " مقدمة" هى فاتحة الكتاب، ومجموعة من الفصول ، التى قد تشترك فى تناولها لبعض الموضوعات كفصول الحذف وأغراضه ،والفصل والوصل ،والقصر.

تطور فكرة الإعجاز القرآنى :

فى المقدمة يسمى عبد القاهر مباحثه فى هذا الكتاب مباحث بيانية ، فقسمة البلاغة إلى علومها الثلاثة: البيان والمعانى والبديع لم تكن قد استقرت حتى عصر عبد القاهر، وهو نفس اتجاهه فى كتابه "الأسرار" . ولذلك فإنه من التجوز ما وضعه ناشر الكتاب تحت عنوانه عندما قال (فىعلم المعانى) ، وربما ذلك لأن أكثر بحوثه هنا يمكن أن تنسب إلى علم المعانى :

ويتناول عبد القاهر مباحثه فى كتابه الدلائل تحت اسم" النظم" الذى يعرفه بقوله :" تعليق الكلم بعضها ببعض .(٢)

---

(١) عبد القاهر الجرجانى ـ دلائل الاعجاز ـ تصحيح السيد محمد رشيد رضا ـ ط ٦ سنة ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠م ، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده ، القاهرة ص ٤٣.

(٢) دلائل الاعجاز ص ١٢ من المقدمة .

وقد كان الجاحظ من أوائل من استعملوا كلمة النظم لتعليل الإعجاز القرآنى بها ، ثم استخدمها الأشاعرة كالباقلانى ، ثم استخدم المعتزلة كلمة الفصاحة مكانها منذ أبى هاشم الجبائى[١] . وقد ردوا هذه الفصاحة إلى حسن اللفظ وحسن المعنى .

بينما أرجع القاضى عبدالجبار الإعجاز إلى الأسلوب والأداء والصياغة النحوية[٢] ، فيما سماه بالفصاحة وربما كان ذلك مما ألهم عبد القاهر تفسيره لفكرة النظم فى كيفية الصياغة وصورها وخصائصها .

حيث كانت هذه الفكرة هى سبيل عبد القاهر فى الحديث عن إعجاز القرآن الكريم ، فليس الإعجاز مرده إلى فصاحة الألفاظ فى حد ذاتها ، لأن معظم ألفاظ القرآن الكريم كانت موجودة قبل نزوله ،ومستعملة فى شعر العصر الجاهلى ونثره ، ولم يثبت أحد الإعجاز لشعر الجاهليين ولا لنثرهم ، ثم إن فصاحة الألفاظ وبلاغتها إنما ترجع إلى صورتها ومعرضها الذى تتجلى فيه ، لا إلى صفات حسية فى الألفاظ ... وإلالما اختلف فى فصاحة الألفاظ بين مستمعيها .

وليس الإعجاز فى القرآن الكريم مرجعه إلى نظام الفواصل الموجودة فى آى الذكر الحكيم ، وزنة كلماته فحسب فالفواصل يمكن أن تكون كالقوافى فى الشعر ، ولو كان تحدى القرآن للعرب بذلك لاستطاعوا معارضته بشعرهم ، ولاعتبر سجع الكهان وحماقات مسيلمة إعجازا ، ولم يقل أحد بذلك .

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٦١ .

(٢) القاضى أبو الحسن عبد الجبار ، المغنى ط وزارة الثقافة بمصر سنة ١٩٦٥ - ١٦/١٦٩ .

ولو أن الإعجاز فى التصوير فقط لكان بعض الآيات معجزا وبعضها غير ذلك ، فبرغم وجود التصوير فى القرآن فليس موجودا فى كل الآيات الكريمة ، ومع ذلك فكله معجز .

وليس مرد الإعجاز القرآنى معانيه فحسب ،لأن المعانى لا تتصور من غير الألفاظ[١] ، وإنما السبيل الذى يمكن به فهم الإعجاز هو فكرة النظم التى يمكن أن تتسع لكل ماسبق، وهى تقوم على تعلق الكلم بعضه ببعض ،ومن خلال إدراك هذه العلاقات تتكشف المعانى الإضافية ، فضلا عن المعنى الأصلى.

منهج عبد القاهر :

لقد حاول عبد القاهر فى كتابه دلائل الإعجاز أن يقدم مفهوما أقرب إلى التكامل يعتمد عليه - من وجهة نظره - فى بيان إعجاز القرآن الكريم . وبرغم أن بحوث هذا الكتاب التى صاغها عبد القاهر لا تتابع بصورة منطقية ، ولكن القارئ يستطيع أن يلمس المراحل التى سار عليها بغية إثبات هذه القضية .

ويريد عبد القاهر أن يرجع الإعجاز إلى أسباب محددة، وأمور يمكن إدراكها دون لبس ، من هنا يقدم فكرته التى تقوم على أساس النظم (الذى يمكن أن يفسر إعجاز القرآن) فما هو النظم ؟

يرى عبد القاهر (أن ليس النظم سوى تعلق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض ، والكلم ثلاث : اسم وفعل

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ٤٩ وما بعدها .

وحرف وللتعلق فيما بينها طرق معلومة وهو لا يعدو ثلاثة أقسام - تعلق اسم باسم أو تعلق أسم بفعل أو تعلق حرف بهما).(١)

ثم يأخذ عبد القاهر فى تفصيل هذه العلاقات التى تقوم أساسا على النحو ، فكأن عبد القاهر يرجع الإعجاز إلى الصياغة وفنونها،وربما كانت وجهة النظر هذه ليست جديدة فى كل جوانبها ، حيث إن القاضى عبد الجبار قد أشار إلى شيىء من ذلك كما أوضحنا،لكن فضل عبدالقاهر يرجع إلى أنه أول من فصل الحديث فى هذه القضية تفصيلا واسعا ، ومن هنا أخذ يدافع عن أمرين أولهما الشعر الذى يتضمن كثيرا من الصياغات العربية - ويجلى كيفية استخدام العرب للغتهم - وثانيهما النحو الذى يعتبر قوام هذه الصياغة،وسوف نجد أنه يدلل علىهذه القضية تدليلا منطقيا ، كما لا يفوته أن يستند إلى موقف الدين من هذه الأمور.

وفى مجال دفاعه عن الشعر يبين أن القرآن الكريم لم يحرم الصالح منه،وأن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم قد استمعوا إلى الشعر وحثوا على المفيد النافع منه ، ثميقلب عبد القاهر وجهة النظر، فيبين أن الشعر لا يرفض لوزنه ،ولا لقافيته ،ولا لمعناه، ولا حتى لما فيه من عبث،طالما أنك لا ترويه بقصد العبث والفساد ، وأنك لو قست هذا العبث فى الشعر كله ،بما يوجد فى النثر وكلام الناس من عبث فى عصر من العصور لفاق الأخير الأول ، وهل من أجل ذلك تلغى الكلام كله ؟ ويبين أن معرفة هذا الشعر مفيدةحتى يستطيع الإنسان أن يدرك قيمة

---

(١) السابق نفسه ص ١٢ من المقدمة (المدخل).

الصياغة القرآنية ومستواها المعجز ، كما يبين أن النحو ضرورة فى هذا المجال حتى يستطيع أن يميز الإنسان الصياغة الخاطئة . وهو لا يقيس القرآن الكريم على البلاغة ،لأن القرآن الكريم هو كتاب الله المعجز ، وإنما تحاول البلاغة أن تجد أسمى نماذجها فى الصياغة القرآنية .

من هنا فقد أخذ عبد القاهر يوضح مزايا هذه الصياغة، من خلال تناوله لقيم البلاغة المختلفة،مستهدفا من وراء ذلك تحرى دقة القرآن الكريم فى التعبير عن المعانى من خلال الصياغات المختلفة ، وهنا نؤكد على أن عبد القاهر لا يعنى بالمعنى الأساس أو المجرد فحسب ، وإنما يصب اهتمامه على المعانى الإضافية التى تعطيها العبارة القرآنية من خلال ذكر المسند إليه أو حذفه ،أو تقديم لفظ بعينه ،أو مايترتب على الفصل أو الوصل ، أو القصر ومزايا وسائله ، والدلالات التى تستقى من وراء ذلك والأمثلة كثيرة فى هذا المجال . وهو إذ يبدأ كتابه دلائل الإعجاز بالحديث عن فكرة النظم التى تتمثل فى ارتباط الكلم بعضه ببعض طبقا لقواعد النحو ، فإنه بناء على هذه العلاقات التى تنشأ نتيجة لهذا الارتباط ، يتحدث حديثا عاما عن البراعة والفصاحة والبلاغة كمترادفات ، ويبين أن الإبداع الفنى مرده إلى العناية باللفظ والمعنى ، والمعاناة فى إخراج ذلك ، وفقا لفكرة النظم التى عرضها فى مطالع كتابه .

ثم يشير إلى ضروب من المزايا والقيم الفنية التى لا يجليها إلا فكرة النظم، ويتخذ عبد القاهر ألوانا من الشعر مجالا لعرض هذه المزايا الفنية فى الإبداع ، وهى تقوم أساسا على فكرة النظم لا سيما عندما " يتحد فى الوضع ويدق فيه الصنع ".

وهو يؤكد على أن إدراك هذه المزايا على وجهها الصحيح يحتاج إلى لطف ونظر ، وفضل روية ، وقوة ذهن ، وشدة تيقظ ، ودربة وممارسة وذوق .

من ثم يبدأ فى عرض القيم الفنية التى تجلى فكرة النظم من خلالها بعض جوانب الإعجاز القرآنى ، بادئا بالتقديم والتأخير ثم الحذف بأنواعه ، ثم القول على فروق فى الخبر .... الخ .

كيف يتناول عبد القاهر الجرجانى الإعجاز؟

والمنهج الذى يسير عليه عبدالقاهر يتمثل غالبا فى:

أولا: عرض القيمة الفنية مسترشدا بأصولها النحوية ، ويحاول شرحها من خلال أمثلة يقدمها هو من عنده حتى يدرك القارىء هذه القيمة فى حدودها الفنية .

ثانيا: ينتقل للتدليل على ذلك من خلال عرض نماذج من الشعر وأقوال السابقين تتضح فيها هذه القيمة الفنية ، حتى يرقى المتلقى صعدا فى إدراك هذه القيمة وهو خلال ذلك يحتكم إلى الذوق الفنى المدرب المثقف حتى تكون الفكرة غاية فى الجلاء ، من حيث المعنى والقيمة والحدود الفنية ، بل والمصطلحات التى شكلتها ، وقد يرد القارىء إلى شيء من الاستبطان الذاتى ، عندما يطلب منه أن يرجع إلى نفسه وذوقه وتأمله الخاص أمام هذه الفكرة .

ثالثا: وهنا يعرض النموذج القرآنى الذى يعتبر المثل الأعلى للبلاغة، وقد تجلت فيه القيمة الفنية بصورة منقطعة النظير ، وبحيث لا يملك المتلقى إلا الاقتناع ، وقد امتلأ بالقيمة فكره وأخصبت وجدانه ، وغمرته نفحات القرآن العظيم ، بإعجازه الفريد ، وقد اتصل روح المتلقى بروح

النص العظيمة ، وعايشها معايشة ثرية ؛ ففى " القول على فروق فى الخبر" :

أولا: يبين عبد القاهر أن الخبر هو أن تثبت شيئا لشىء آخر ويتم ذلك الإثبات بإيجادعلاقة نحوية بين لفظين أو أكثر ، من هنا يفرق بين لونين من الخبر :

أولهما : الخبر الذى لا يتم المعنى إلا به نحو " منطلق " فى : زيد منطلق ، ومثل .. خرج ، فى " خرج زيد" فكل من " منطلق " وخرج أصل فى إفادة المعنى لا يتم الكلام إلا به .

ثانيهما : الخبر الذى هو زيادة فىالمعنى كالحال فى " جاءنى زيد راكبا" حيث إن الحال خبر فى المعنى ، وهو ليس ركنا أساسيا فى الجملة ، وإنما هو زيادة فى معنى خبر سابق عليه ، حيث بينت " راكبا" هيئة مجىء زيد . وهكذا يتضح الأساس النحوى للقيمة الفنية .

ثم يبين عبد القاهر الفرق فى الدلالة بين أن يكون إثبات المعنى فى الجملة عن طريق" الاسم" ، وبينه إذا كان " بالفعل " ، وهذه هى القيمة الفنية التى سوف يوضحها :

فإثبات المعنى للشىء عن طريق الاسملا يقتضى تجدد هذا المعنى شيئا بعد شىء.. وهو ما يتضح من قولنا :" زيد منطلق " حيث تفيد ثبوت الانطلاق لزيد،دون تجدد أوحدوث هذا الانطلاق شيئا فشيئا ، بل يكون المعنى فيه كالمعنى فى : زيد طويل وعمرو قصير ، حيث إنك لا تقصد تجددا، أو حدوثا فى الطول أو القصر وإنما مجرد الإثبات ، كذلك يكون المعنى فى " زيد منطلق " مجرد إثبات الانطلاق لزيد لا غير.

أما إثبات المعنى بالفعل فإنه يقصد فيه إلى التجدد فإذا قلنا : زيد ها هو ذا ينطلق ، فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءا فجزءا وجعلته يزاوله ويزجيه .

حينئذ يكون المتلقى قد أدرك أبعاد القيمة الفنية ، واتضحت فى ذهنه حدودها بجلاء من خلال الأمثلة التى قدمها من عنده خلال تحليله .

ثانيا: هنا ينتقل بالقارىء من أجل مزيد من الجلاء والوضوح ولكن من خلال تحليل أمثلة من أقوال السابقين، فيدعو هذا القارىء إلى التأمل بلطف ومحاولة الاتصال بهذا التركيب اللغوى اتصالا دقيقا معايشا ، مدركا واعيا لذلك نراه يدعو هذا المتلقى ليدرك الفارق بين إثبات المعنى بالاسم أو إثباته بالفعل من خلال تأمل هذا البيت :

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا

لكن يمر عليها وهو منطلق

حيث ندرك أن منطلق فى نهاية البيت لا تفيد تجددا ولا حدوث شيء بعد شيء ، ومرة بعد مرة ، للكشف عن مدى فقر هذا القائل ، الذى لا يرى الدرهم إلا مرة وبسرعة ، ولا يتصل به اتصال الاستفادة والتمتع .

ولو قال الشاعر وهو ينطلق " لم يحسن"[1] حيث

---

(١) عبد القاهر الجرجانى- دلائل الاعجاز ط ٦ مكتبة صبيح ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠م ص ١٢٢.

يوحى الفعل بالتجدد والحدوث شيئا بعد شيء مما قد يفيد اتصال الشاعر بهذا الدرهم ، واستفادته المادية ، وذلك لا يوحى به فقره الشديد ، الذى يريد أن يعبر عنه باستخدام " منطلق ".

ثالثا : هنا يقدم عبد القاهر النموذج القرآنى ليحتكم إليه فى إثبات فكرته ، والتدليل على سلامة وجهة نظره ، وحيث يكون القارىء أكثر قدرة على الاقتناع الخصب بهذه القيمة ، التى يحاول عبد القاهر جلاءها من خلال النصوص ، وحيث يمثل النص القرآنى القمة بالنسبة لها ، فيكشف عنها مبينا لها بيانا فكريا ذوقيا مفصلا ، وبحيث لا يستطيع القارىء المدرك ذو الفهم الثاقب إلا أن يعايش النص القرآنى العظيم ، وقد تجلت هذه القيمة الفنية بصورة منقطعة النظير ، تملأ الفكر وتمتع الوجدان .

لهذا نراه يقول : وإذا أردت أن تعتبره بحيث لا يخفى أن أحدهما (أى الاسم والفعل) لا يصلح فى موضع صاحبه فانظر إلى قوله تعالى :

" وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد "(١) تصويرا لحالة كلب أهل الكهف الذين ظلوا فى كهفهم رقودا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، كما يحكى القرآن الكريم ، وكان هذا الكلب على هذه الصورة لم تتغير حالته ولم تتبدل ، فلو قلنا "يبسط" الموحية بالتجدد والحدوث حالا بعد حال ، وشيئا فشيئا ، مكان " باسط" لا متنعت الصورة التى يريد القرآن الكريم بيانها ، وأن من بالكهف ثبتوا على هذه الحالة " وكلبهم

---

(١) سورة الكهف آية (١٧) .

الوصيد : فناء الدار والمقصود هنا فناء الكهف

باسط ذراعيه "ـ يقول تعالى " وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا".(١)

ثم بعثهم الله تعالى لليقظة والحياة الفعلية ليكشف المولى جل وعلا أن وعده حق،وأن قيام الساعة لا ريب فيه ، حيث يبعث سبحانه وتعالى العباد من موتهم ورقدتهم.

وهكذا تتجلى الدقة القرآنية المعجزة فى التعبير عن وصف حالة هذا الكلب فى إطار المورة العامة لأهل الكهف التى أرادها المولى جل وعلا عبرة وموعظة .

والأمثلة على ذلك متعددة فى طول الكتاب وعرضه،وإن تتابعت ، حيث تجد عبد القاهر فى حديثه عن معنى "إنما" ومتى تستخدم فى التعبير يسلك نفس المنهج فيبين :

أولا: أنها تجئ لخبر لا يجهله المخاطب ولا ينكره ، ولا يدفع صحته ، فتقول مثلا للرجل : " إنما هو أخوك " و" إنما هو صاحبك القديم" لا تقوله لمن يجهل ذلك ، ويدفع صحته ، ولكن لمن يعلمه ويقربه ، إلا أنك تريد أن تنبهه للذى يجب علية من حق الأخ وحرمة الصاحب .(٢)

ثانيا: ينتقل عبد القاهر بهذه الفكرة إلى مجال أقوال غيره فى الأدب ليزيد الأمر جلاء ووضوحا ، عندمايذكر قول المتنبى لكافور كمثال لاستخدام " إنما" بالمعنى الذى أشار إليه فيقول :" ومثله قول الآخر ": ـ

---

(١) سورة الكهف آية (١٨).

(٢) دلائل الاعجاز ص ٢١٦.

إنما أنت والد والأب القا طع أحنى من واصل الأولاد

لم يرد أن يعلم كافورا أنه والد، ولا ذاك مما يحتاج كافور فيه إلى الإعلام به. ولكنه أراد أن يذكره منه بالأمر المعلوم، لينبنى عليه استدعاء ما يوجبه كونه بمنزلة الوالد"(١) من العطف والحنان والبر، فاستخدام إنما ليس لأمر ينكره المخاطب - كما يضيف مثالا آخر من النثر، يوضح الفكرة، ويرقى بها صعدا فى إقناع المتلقى، حيث يعتمد فى تناوله لهذا المثال على بعض الصفات النفسية المركوزة فى الطباع، وهى لفتة من عبد القاهر جديرة بالاعتبار(٢)، وذلك عندما يرد القارئ إلى ذاته ونفسه، وما استقر فيها كوسيلة للتبرير والإقناع تدعم تحليله للفكرة، وهو ما يسمى بالاستبطان الذاتى، فيقول:

" ومثل ذلك قولهم: إنما يعجل من يخشى الفوت، وذلك أن من المعلوم الثابت فى النفوس أن من لم يخش الفوت لم يعجل ".(٣)

هنا يكون المتلقى قد ألم بأبعاد الفكرة البلاغية، فوضح فى ذهنه أنسب استخدام لإنما فى التعبير، لتدل على هذا المعنى المحدد الصحيح، الذى يساير أعراف اللغة فى أحسن أساليبها.

ثالثا: من ثم يقدم عبد القاهر النص القرآنى، الذى يكشف بإعجازه ودقته فى عرض الفكرة وبيانها وتحديدها على أكمل وجه، عن سلامة وجهة نظر عبد القاهر، وهو إذ يحتكم

---

(١) دلائل الاعجاز، ص ٢١٦.

(٢) انظر كتابنا الاتجاه النفسى فى نقد الشعر الفصل الثانى القسم الخاص بعبد القاهر الجرجانى.

(٣) السابق نفسه والصفحة نفسها.

إلى النص القرآنى ، إنما يقدم النموذج الأمثل والأعلى للبلاغة العربية ، حيث يتخذ من القرآن الكريم معيارا لهذه البلاغة ، لا العكس .

وبذلك تتضح الفكرة الأساسية وهى المعنى الأصح ، والموضع الأدق الذى تستخدم فيه إنما ، كما يتضح الهدف العام لكتاب " دلائل الإعجاز " ويدعم ، ألا وهو الكشف عن إعجاز القرآن الكريم ذاته ، فتجده يقول :

" ومثاله من التنزيل قوله تعالى :

" إنما يستجيب الذين يسمعون" وقوله تعالى :

" إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ".

" وقوله تعالى :"

" إنما أنت منذر من يخشاها ".

ومن خلال تعليقه على دلالة إنما فى هذه الآيات الكريمة ، يدرك المتلقى بصورة غاية فى الدقة ، أنها فى هذه الآيات للتذكير بأمر ثابت معلوم ، " فكل عاقل يعلم أنه لا تكون استجابة إلا ممن يسمع ويعقل ما يقال له ، ويدعى إليه ، وأن من لم يسمع ولم يعقل لم يستجب ، وكذلك معلوم أن الإنذار إنما يكون إنذارا ويكون له تأثير إذا كان مع من يؤ من بالله ويخشاه ، ويصدق بالبعث والساعة ، فأما الكافر الجاهل فالإنذار وترك الإنذار معه واحد".(١)

وهكذا تتجلى الدقة القرآنية فى الدلالة ومدى خصوبتها ، متجاوزة المعانى الأساسية لحشد كل الإيحاءات الكاشفة عن دور " إنما " فى العبارة من تذكير بأمر ثابت معلوم ،

---

(١) السابق نفسه ص ٢١٧.

إلى تعريض بموقف من لا يستجيبون لدعوة الحق، إلى السخرية من عقولهم التى عطلوها عن أداء ما خلقت له من فهم وتقدير، إلى المساس بكينونتهم التى لم يحققوها ، ووجودهم الذى فقد مسوغات بقائه .. بصورة إيجابية .

ولعلنا نلاحظ أن عبد القاهر إنما يوحى بذلك دون أن يقول مثلا : هذا هو الإعجاز ... لأنه بصدد عرض قضية عظيمة تتطلب الإيحاء وعدم المباشرة فى التعبير عنها ...، ليستطيع المتلقى أن يأخذ منها كما يشاء ، وإن تفاوتت أقدار واستفادات المستفيدين ومحاولات وفهم الفاهمين ، وطالبى العلم والمعرفة بأبعاد فكرته .

ولعله قد وضح كيف كانت القيمة الفنية مذهبه إلى بيان ما سبق .

موقف الزمخشري في تفسيره

"الكشاف"

موقف الزمخشري[١] في تفسيره "الكشاف"

حاول الزمخشري في تفسيره الكشاف أن يستفيد من دراسات البلاغيين السابقين ،لا سيما عبد القاهر الجرجاني ، وقد قدم صورة رائعة لتفسير القرآن الكريم،حيث حاول تعمق مسالك التنزيل ، والكشف عما يطوى فيه من كمال وجلال، بذوق أدبي مرهف ، وحس فني بقيم الجمال البلاغي ، فأبان عن مقدرته في الإحاطة بتصوير الدلالة البلاغية ،وإدراك كثير من أبعاد العبارات ، وسمات المفردات والتراكيب القرآنية ، وهو في ذلك يعتمد - غالبا - على فنون البيان والمعاني كماعرضها عبد القاهر الجرجاني في كتابيه : "أسرار البلاغة" و" دلائل الاعجاز" ..،وفي تصوري أنه إذا كانت قيم البلاغة العربية قد بلغت أقصى تطورها الفني من حيث التنظير عند عبد القاهر الجرجاني في كتابيه "الدلائل"و"الأسرار" ، فإنها بلغت أقصى تطورها الفني من حيث التطبيق عند الزمخشري في تفسيره الكشاف.

وربما كان قلة اهتمام الزمخشري بالبديع راجعة إلى أن المتكلمين قد نحوا البديع عن مباحث أسرار البلاغة في الذكر الحكيم ، لأنه لا يدخل في قضية الإعجاز ،ولأن كثيرا منه مستحدث - في نظرهم - وما ورد منه في القرآن جاء دون تكلف له .[٢]

---

(١) هو جار الله محمود بن عمر ولد بزمخشر بفارس سنة ٤٦٧هـ وتوفي سنة ٥٣٨ هـ له كتب كثيرة منها: " أساس البلاغة " و" المفصل " في النحو ، وأطواق الذهب " ، وغيرذلك.

(٢) البلاغة - تطور وتاريخ - ص ٢٦٥.

ونظرا لأن هذه الدراسة ليس من هدفها التعـــــرض للمجالات التطبيقية فقد اكتفينا بهذه الإشارة لإبراز الخط التطورى للبلاغة العربية ، حيث يكتفى بالإشارة الدالـــة ، وحيث يغنى النموذج عن الحصر . وحيث تتركز النظرة علـــى موقف البلاغة بين القيمة والمعيارية .

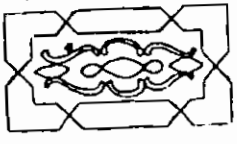

تجرد البلاغة العربية للمعيارية

تجرد البلاغة العربية للمعيارية

فى كتاب : مفتاح العلوم ـ لسراج الدين أبى يعقوب السكاكى[١]

تكاد البلاغة بعد عبد القاهر والزمخشرى أن تبعد تماما عن الدراسة القائمة على الذوق والتحليل الخصب المثرى للنصوص ، لتدخل فى طور التقرير والتقعيد ، ومما يمثل تلك المرحلة ، كتاب " نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز " لفخرالدين الرازى (المولود سنة ٥٤٤ هـ والمتوفى سنة ٦٠٦هـ) وواضح من عنوانه قصده إلى الإيجاز والإجمال والاختصار ،فهو محاولة لتنظيم وتبويب ماكتبه عبد القاهر ـ كما يقول ـ فى صورة تنضبط فيها القواعد البلاغية ، وتنحصر فروعها وأقسامها بدقة ، لما أدخله فيها من بحث فى الدلالات ـ ومسائل فلسفية ـ ومنطقية وكلامية وإقصائه النزعة الذوقيةالتحليلية التى كانت طابع كتابى عبد القاهر.

وإذا كان لهذا الكتاب من فضل فهو تلك المحاولة فى حصر مباحث البلاغة وتحديد أبوابها ، تحديدا أوحى للسكاكى بكتابه " مفتاح العلوم".

---

(١) ولد سنة ٥٥٥ هـ فىخوارزم ويرجح أنه توفى سنة ٦٢٦ هـ وربما كانت تسميته " بالسكاكى" بسبب أسرته التى كانت تحترف صنع المعادن وخاصة السكك وهى المحاريث التى تفلح بها الأرض ، ومن هنا شاع لها لقب السكاكى، وربما من السكة وهى حديدة تضرب بها النقود.

لذا فقد تصاعد اتجاه التحديد فى محاولة سراج الدين أبى يعقوب السكاكى فى كتابه " مفتاح العلوم "، الذى تميز بالتقنين والتقرير والتمييز الدقيق، فضلا عن التلخيص لآثار سابقيه، لا سيما عبد القاهر والزمخشرى ، وأثر المنطق فيه واضح جدا .

وهو بهذا القسم الذى لخص فيه ما سبقه من كتابات فى البلاغة قبله ، وما أضافه من أفكار إليه قد أعطى للبلاغة العربية صيغة شبه نهائية عكف عليها العلماء من بعده بالشرح أو التلخيص .

وقد كان تلخيصه أدق من تلخيص الفخر الرازى ، بحيث أصبحت البلاغة لديه منضبطة فى قوانين وقواعد ذات قوالب منطقية جافة ، كما تميزت بالإحاطة الكاملة للأقسام والفروع ، فغدت قواعد كقواعد النحو ، وتجردت تماما من التحليلات الفنية الذوقية ومالت تماما للمعيارية المجردة .

وقد حصر مباحث علم المعانى بقوله إنه : "تتبع خواص تراكيب الكلام فى الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام على مايقتضى الحال ذكره ".(١) وبحث فيه الخبر والطلب ،والتقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب ، والقصر.

كما حدد موضوع علم البيان بقوله معرفا له : البيان معرفة إيراد المعنى الواحد فى طرق مختلفة بالزيادة فى

---

(١) السكاكى ، مفتاح العلوم ـ ط عيسى البابى الحلبى وأولاده ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧م ص ٧٧.

وضوح الدلالة عليه بالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ فى مطابقة الكلام لتمام المراد منه [١]، وقد بحث هنا التشبيه والمجاز والكناية. وبعد ذلك يأخذ فى تلخيص القول عن البلاغة والفصاحة،فبين أن البلاغة تشمل علمى المعانى والبيان ، وبالنسبة للفصاحة فقد أرجع قسما منها إلى اللفظ ، وقسما آخر إلىالمعنى وما وضعه من شروط هنا يذكرنا بشروط ابن سنان فى هذا المجال .

وقد تميزت ألوان البديع لديه باستقلال مباحثها ، ولم يجعلها متداخلة مع المعانى والبيان كما فعل الفخر الرازى ، فجنب كتابه المفتاح الخلط والتداخل،بل إنه ألحقها بالفصاحة وجعلها قسمين : قسما يعود إلى المعنى : كالطباق والمقابلة والمشاكلة ومراعاة النظير ، وقسما آخر يرجع إلى اللفظ نحو التجنيس ، والسجع ، والترصيع .

ولقد كان يبرهن منطقيا على كل فكرة يقدمها قبل أن يعرضها مثل تقديم المعانى على البيان مثلا .

وهكذا طغى المنطق والتعقيد والفلسفة وعلم الكلام على البلاغة،مما أفقدها الذوق والتحليل فأصابها الجمود بعد أن فقدت نضرتها ورواءها،بل أصبح ينقصها الوضوح أحيانا ، وإن كانت المحاولة لا تخلو من جانب إيجابى يتمثل فى ضبط مصطلحات البلاغة وأصولها ضبطا علميا ،ومحاولة تقنينها وجمعها .

تتابعت بعد السكاكى دراسات تسير فى نفس الاتجاه ، فلم تزد عليه شيئا ذا بال لا من حيث المادة ولا من حيث طريقة العرض ، اللهم إلا ما كان من محاولات للتلخيص والتوضيح والشرح منها :

---

(١) السابق ونفس الصفحة.

١ - "التبيان فى علم البيان" عبد الواحد بن عبدالكريم الزملكانى الدمشقى (٦٥١ هـ).

٢ - الإيضاح : للخطيب القزوينى (٦٦٦ هـ - ٧٢٤هـ).

٣ - " الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز" يحيى بن حمزة العلوى اليمنى (٧٤٩ هـ).

٤ - " كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلوم البيان" - ابن قيم الجوزية .

٥ - " منهاج البلغاء وسراج الأدباء" - أبو الحسن حازم القرطاجنى (٦٨٤ هـ).

٦ - " المصباح فى علوم المعانى والبيان والبديع "- بدر الدين محمد بن جمال الدين بن مالك الطائى الأندلسى أصلا الدمشقى (٦٨٦ هـ).

٧ - " الأقصى القريب فى علم البيان" - محمد بن محمد بن عمرو التنوخى (٦٩٢ هـ).

٨ - "المطول ، والمختصر كتابان - سعد الدين بن مسعود التفتازانى (٧٩١ هـ).

تمثيل الخطيب القزوينى لاتجاه المعيارية بعدالسكاكى:

ويمكن أن نمثل لذلك بالخطيب القزوينى[١] (٦٦٦هـ - ٧٢٤هـ) فى كتابه :

" تلخيص المفتاح" حيث اختصر فيه القسم الثالث من كتاب مفتاح العلوم للسكاكى ، وقد نال هذا التلخيص شهرة واسعة لأنه يتميز عن غيره من التلخيصات بحسن عبارته ، ووضوح دلالته إلى حد كبير .

---

(١) هو محمد بن عبدالرحمن الخطيب القزوينى(المتوفى سنة ٧٢٤هـ) ، وله أيضا مختصر المعانى والإيضاح.

وقد كان الدافع إلى تأليفه تهذيب كتاب السكاكى مما فيه من حشو وتطويل ، كما حاول أن يخلى تلخيصه من التعقيد قليلا ، وناقش السكاكى فى غير موضع ، واستبدل ببعض تعريفاته الملتوية تعريفات أكثر دقة ووضوحا ، كما حاول أن يستفيد من كتابى عبد القاهر "الأسرار" والدلائل " ومن كتاب الكشاف للزمخشرى ، فأضاف بعض الفوائد.

والقزوينى وإن تابع السكاكى فى طريقته ، فإنه لم يتقيد كل التقيد به ، من ذلك مثلا أنه بحث فى الفصاحة أولا وجعلها مقدمة على غيرها ، ولعله فى ذلك متأثر بابن سنان فى " سر الفصاحة" ، وقد سبق أن عرفنا أن السكاكى أخرها فى بحث ملحق،بعد تناوله لعلمى المعانى والبيان. ومما خالفه فيه أيضا المجاز العقلى حيث تكلم عنه السكاكى فى علم البيان ، بينما تناوله القزوينى فى المعانى .

وبعد المقدمة فى فصاحة المفرد والكلام ، يعرف البلاغة بقوله :" مطابقة الكلام لمقتضى الحال "، ثم يتحدث عن تفاوت مقامات الكلام ، وعلى أساس ذلك يقسم البلاغة إلى فنونها الثلاثة :

الأول : علم المعانى ، ويعرفه بقوله :" علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال"[١] ، وقد حصره فى ثمانية أبواب هى :

أحوال الاسناد الخبرى ـ أحوال المسند إليه ، أحوال المسند ، متعلقات الفعل ، القصر ، الإنشاء ، الفصل والوصل، الايجاز والاطناب والمساواة .

ويلاحظ أن تعريفه غير تعريف السكاكى ، كما أنه وضع

---

(١) تلخيص المفتاح ، ط مصطفى البابى الحلبى وأولاده ، بمصر ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥م ص ٣٧.

الانشاء فى مقابل الخبر . ليشمل الإنشاء غير الطلبى ، وهو لا يكتفى بهذا الحصر ، بل يحاول تعليله . كما يوضح سبب حصره لعلم المعانى فى هذه الموضوعات ، بقوله : لأن الكلام إما خبر أو إنشاء ، لأنه إن كان لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه فخبر ، وإلا إنشاء ، والخبر لابد له من مسند إليه ومسند وإسناد ، والمسند قد لا يكون له متعلقات إذا كان فعلا أو فى معناه ، وكل من الإسناد والتعليق إما بقصر أو بغير قصر ، وكل جملة قرنت بأخرى إما معطوفة عليها أو غير معطوفة ، والكلام البليغ إما زائد على أصل المراد لفائدة أو غير زائد [١] ، ثم يتناول كل لون مقرنا التعريف والقاعدة بالمثال أحيانا .

أما الفن الثانى : فهو علم البيان ، ويعرفه بقوله : " علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه " . ثم يتحدث فى أنواع دلالة اللفظ إما على تمام ما وضع له ، وهى الدلالة الوضعية والمطابقة ، وإما دلالة على جزئه وهى التضمن ، أو على خارج عنه وهى الالتزام ، وإذا كانت الأولى وضعية فالأخيرتان عقليتان ، وقد أدخل - كالسكاكى - المجاز والكناية فى دلالة الالتزام ، وهكذا حصر علم البيان فى التشبيه والمجاز والكناية ، ثم يفصل الحديث فى كل لون على حده .

وقد اعترض كثيرا على السكاكى فى هذا الفن .

والفن الثالث البديع ، وقد عرفه بقوله : " علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة " [٢] .

---

(١) السابق نفسه - ص ٣٨ ، مناهج بلاغية ص ٣٨٥ .

(٢) التلخيص - ص ٢٣٦ .

(٣) تلخيص المفتاح ص ٣١٥ .

كما يقسم هذه الوجوه إلى ضربين معنوى ولفظى ، وبرغم متابعته للسكاكى ، فقد توسع فى عرضها ،ومرد ذلك إلى ولع معاصريه بهذه المحسنات البديعية ،ولذلك فقد ساق من المعنوى ثلاثين لونا ،منها المطابقة ومراعاة النظير والتورية والتقسيم .. الخ ، كما ساق من اللفظى ثمانية أنواع منها الجناس والسجع ورد العجز على الصدر .الخ.

وهو يشير إلى أن أصل الحس هو أن تتبع الألفاظ المعانى . هذا وقد ختم القزوينى كتابه بحديثه عن السرقات الشعرية فأشار إلى الاقتباس والتضمين والعقد والحل والتلميح ،كما أوصى أن يتأنق الأديب فى ابتداء الكلام وفى التخلص من النسيب إلى غيره ، وفى نهاية الكلام.

والملاحظ أن القزوينى - تقريبا - لم يأت بجديد فقد كان متابعا لسابقيه وإن حاول أن يخفف من صرامة منطق التقنين ومعياريته كما جاء عند السكاكى ، ولكننا كنا نتمنى التجديد والإضافات ، لأن السكاكى قد فعل شيئا للحفاظ على البلاغة العربية ، وربما كانت هناك مسوغات اجتماعية تدعو لذلك ، كتمزق الدولة وضعفها وتسلل العجمة ، فكان لابد من الحفاظ على هذا التراث ، ولكن ما مسوغ التقليد والمتابعة؟

"الإيضاح " للقزوينى :

وسواء أحس القزوينى بالحاجة إلى كتاب ثان يبسط فيه بعض القضايا التى فى " التلخيص "،أو يفسر ما أجمل فيه ،أو لم يحس بذلك ، فإن هذه المحاولة فى حد ذاتها بعد " التلخيص " يمكن أن تبين لنا الدائرة الفكرية التى أحاطت بالبلاغة العربية بعد عبد القاهر والزمخشرى ، وهى دائرة الجمود سواء من خلال التلخيصات أو الشروح .

وإذا كان منهج القزوينى فى الإيضاح لا يختلف عن منهجه فى التلخيص فإن طريقة العرض مختلفة ، لا سيما وهو لم يعمد إلى وضع الشروح على التلخيصات كما كان مألوفا فى عصره ، وإنما عرض قضاياه ، وبسط موضوعاته ، مفصلا فى أحيان كثيرة ، ومجملا فى بعض الأحيان،وهو يعتمد فى مادته الأساسية على " مفتاح العلوم" كما يضيف بعض الأفكار من " دلائل الإعجاز " أو "أسرار البلاغة" وغيرهما ، وقد يكثر من الأمثلة ، وقد يناقش هذا أو ذاك من البلاغيين، كما تتضح لديه هنا بصفة عامة روح السرد .

ويعد القزوينى خير من خلف السكاكى فيمن عكفوا على كتابه " المفتاح" بالتلخيص والشرح.

التفتازانى وكتاباه المطول والمختصر:

كما يعد سعد الدين مسعود بن عمر التفتازانى المتوفى بسمرقند عام ٧٩١ هـ أهم من خلف القزوينى على شرح التلخيص، حيث شرحه فى كتابيه "المطول" و" المختصر" .

وقد ألف الثانى منهما بعد إلحاح كثير من الفضلاء عليه بأن يختصر مطوله،ويقتصر على بيان معانيه ، وكشف أشعاره فكان أن وضع المختصر أو الشرح الصغير.

ولا يخرج الشرحان عما رسمه السكاكى ، واختطه القزوينى ، بل لقد سلك طريقة الشراح فى تلك الفترة من حيث أخذ الكلمة أو العبارة ثم القيام بشرحها.

وقد أشار إلى استعانته بكتابى عبد القاهر ، دلائل الإعجاز " وأسرار البلاغة" وبكشاف الزمخشرى ، كما يشير إلى بعض اللغويين كالجوهرى والمبرد والزجاجى .

وقد اهتم بدفع اعتراضات القزوينى على السكاكى ، لذلك نجده مثلا لا يأخذ بتعريف القزوينى لعلم المعانى ، ولا يعجب بتقسيمه له ، مفضلا عليه تعريف السكاكى لدقته فى نظره .

وقد وضع تعريفا لعلم البيان بأنه " علم يبحث فى التشبيه والمجاز والكناية ". كما رفض التقسيمات الكثيرة للتشبيه عند السكاكى ومن تبعه ، مادحا طريقة عبدالقاهر فى الإكثار من الأمثلة للتشبيه وتحليلها للكشف عما فيها من لطائف وجمال ،ولكنه لم يستفد من ذلك كثيرا.

ولم يأت بجديد فى البديع ، وإن كان قد أضاف ثلاثة أقسام إلى رد العجز على الصدر.

وقد عد القدماء هذا الشرح خير شروح التلخيص ، كما وضعت كثير من الحواشى عليه كحاشية السيد الشريف الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ هـ.

ومن اللافت للنظر أن الخطيب القزوينى والتفتازانى وغيرهما من البلاغيين يكشفون عن تأثرهم بعبد القاهر الجرجانى وإعجابهم بكتابيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" ، لكننا لا نجد أثرا واضحا لذلك كالاهتمام بالنواحى الفنية مثلا ، أو التأكيد على القيمة البلاغية من حيث أثرها فى التعبير ، ودورها الجمالى والدلالى ، لكننا على العكس وجدنا انخراطا فى المعيارية ، وتعميقا لها ،مما ساعد على التجرد المعيارى لقيم البلاغة العربية ، فوصلت إلينا جسما بلا روح ، وعقلا بلا وجدان .

من الكتب التى سارت على درب القزوينى :

١ - كما عنى جلال الدين السيوطى (ف ٩١١ هـ) بوضع أرجوزة تختصر متن التلخيص مع ضم بعض الزيادات وسماها "الجمان" كما وضع عليها شرحا سماه " عقود الجمان" .

٢ - كما قام ابراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الاسفراييني (ف ٩٥١ هـ) ، بشرح التلخيص فيما سماه " الشرح الأطول على التلخيص ".

٣ - ومن حواشى المطول حاشية عبد الحكيم بن شمس الدين السيالكوتى الهندى المتوفى سنة ١٠٦٧هـ.

٤ - وقد ألف ابن يعقوب المغربى المتوفى (١١١٠هـ) شرحا على مختصر التفتازانى سماه " مواهب المفتاح فى شرح تلخيص المفتاح".

٥ - ثم جاء محمد بن عرفة الدسوقى(ف ١٢٣٠ هـ) ووضع حاشية على مختصر السعد.

وكلهذا يكشف عن تلك الدائرة الضيقة والمغلقة التى عاشت فيها البلاغة العربية أسيرة معايير جافة، وأقيسة بعيدة عن الذوق ، وانضباط أصابها بالصرامة والجفاف فذبلت ، وإن عاشت فى دائرة الحفظ والتكرير،ثم أخذ أعداؤ ها يكيلون لها التهم دون أن يحاولوا إعادة الأمور إلى نصابها الصحيح بشيء من الوعى والدرس والإخلاص .

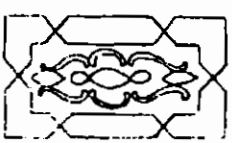

نماذج للبحث البلاغي اليوم

نماذج للبحث البلاغى اليوم

وهكذا واجه المفكرون العرب فى العصر الحديث هذا التراث مثقلا بهذه الأغلال ، فيفر منه من يفر موءثرا لليسر والسهولة ، بينما يقبل عليه من أوتى حظا من الإخلاص ، وبسطة من الصبر على معايشة تراثه اخدمة لدينه وقضايا أمته الفكرية ، لا سيما وهم يحاولون التأصيل لفكرنا المعاصر ،من هنا وجدنا مثلا الأستاذ أحمد مصطفى المراغى[١] فى كتابه "علوم البلاغة" يحاول فى فهم واستيعاب وبسط أن يقدم قيم البلاغة العربية فى شمول وإحاطة ، بل ويتصدى للمشكلات والخلافات حول القضايا البلاغية ، تصديا يكشف عن رغبة فى إبراز قيم هذه البلاغة إبرازا عصريا ، لا ينقصه الاعتماد على التراث بشكل موسع ، وإن كان يحاول أن يتصل بالواقع والعصر الحديث اتصالا فيه من محاولة التيسير والبسط الشيء الكثير ، وفيه من إبداء الرأى ووجهة النظر ما يكشف عن فهم للتراث وطول معايشة له ، وسبر لأغواره ، ومقدرة خصبة على التعامل مع قيمه تعاملا يوضح دلالات الأمثلة المستشهد بها ، وهى فى معظمها مأخوذة عن السلف ، وفى ذات الوقت كان يهتم بالحصر والعد والقياس للأحوال المختلفة ، مما يجعله على ولاء للقيمة والمعيارية فى آن واحد ، وهو موقف متباين الدرجة حسب القضايا المتناولة .

هذا بينما كان الأستاذ على الجندى يحاول فى كتبه التى منها: فن التشبيه وفن الجناس[٢] عرض القضايا البلاغية

---

(١) أحمد مصطفى المراغى، علوم البلاغة البيان والمعانى والبديع مراجعة وتصحيح محمود أمين النواوى ط ٦ المكتبة المحمدية التجارية، القاهرة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢م .

(٢) على الجندى ،فن الجناس ،ط دار الفكر العربى ،القاهرة

عرضا يتميز بالعمق والشمول ووفرة الأمثلة الأدبية ،باستفاضة وذوق أدبى يعلى من شأن القيمة المعروضة ،ويكشف عن مختلف جوانبها ، وهى كتب قد تلائم المتخصصين أكثر من غيرهم.

كما وجدنا الأستاذ أمين الخولى(١) يحاول أن يرفد البلاغة العربية بقضايا علم النفس والجمال وغيرها من العلوم الحديثة كى يخصبها بنظرات جديدة تجعلها قادرة على أداء دورها فى النهوض بفنون القول وتوجيهها ورعايتها ،وهو بذلك يعلى من شأن القيمة الفنية للبلاغة العربية.

من هنا كان لابد من محاولة تجمع بين مزايا الموءلفين السابقين ، فكانت محاولات الاستاذ الدكتور بدوى طبانة(٢) بسط قضايا البلاغة العربية وقيمها وتقديمها للباحثين عن أصالتهم ، وذلك خلال كتبه فى :أبى هلال العسكرى، والبيان العربى ، وعلم البيان ، وقدامة بن جعفر ، والنقد الأدبى حتى القرن الثالث الهجرى ، وغيرها من كتبه النقدية ، وإن تركزت اهتماماته على" البيان" دون فنون البلاغة الأخرى. وتتميز محاولاته بالكشف عن الجوانب المشرقة فى هذا التراث، ولفت النظر إلى قيمه الأصيلة ، ومحاولة الربط بينه وبين قيم المعاصرة .

• • • •

ولم يتوقف هذا التيار الذى يستهدف الكشف عن قيم البلاغة العربية،لإحساس المفكرين العرب بحاجة هذا اللون من

---

(١) أمين الخولى، البلاغة وعلم النفس (بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة مجلد ٤ ج ٢ ص ١٩٣٩.

(٢) د. بدوى طبانة ، البيان العربى ط ١٣٧٥هـ - ١٣٥٦ هـ ، مكتبة الانجلو المصرية . وله أيضا : علم البيان ط ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م مكتبة الانجلو المصرية .
وله أيضا: التيارات المعاصرة فى النقد الأدبى مكتبة الانجلو المصرية .

التراث إلى بذل مزيد من الجهود لجلاء جوانبه ، وتقديمه تقديما يعين على فهمه وتذوقه وتوظيفه فى دراسة النصوص .

من ثم وجدنا الدكتور درويش الجندى فى كتابه " علم المعانى "[١] يحاول تقديم قضايا علم المعانى تقديما يتميز بالشمول ، ويحاول التخلص من التكرار للدلالات الذى نجده مثلا فى " الإيضاح " بالنسبة للمسند إليه والمسند ، ويجعل مرتكزه على التقديم ثم التأخير ثم الحذف وهكذا تناول المسند إليه والمسند والمتعلقات .

كما وجدنا الدكتورعبد العزيز عتيق[٢] يحاول فى كتبه علم المعانى ، وعلم البيان ، وعلم البديع أن يكثر من الأمثلة والنماذج المأخوذة من القرآن الكريم والشعر العربى مستهدفا بذلك زيادة بسط قضايا البلاغة العربية ، والتأكيد على قيمها الفنية ، وتقديمها للباحثين ، لا سيما طلابه بجامعة بيروت العربية ، ولهذا فقد تجاوز عن بعض القضايا البلاغية التى ربما لم يكن مقتنعا بها ، أو يتضح فيها طغيان المنطق والأصول والجدل العقلى على الناحية البلاغية ، كما حاول أن يستلهم تطور القيم البلاغية من خلال عرضه التاريخى أحيانا .

وفى الوقت الذى كان الدكتور عبدالفتاح لاشين يحاول التركيز على النص القرآنى وعرضه فى ضوء قيم البلاغة العربية فى كتبه ، "المعانى فى ضوء أساليب القرآن"[٣] ، و"البيان

---

(١) د. درويش الجندى : علم المعانى ط مطبعة نهضة مصر القاهرة .

(٢) د. عبدالعزيز عتيق : فى البلاغة العربية : علم المعانى ط دار النهضة العربية بيروت سنة ١٩٧٤ ، وكذلك علم البيان .

(٣) د. عبدالفتاح لاشين ، المعانى فى ضوء أساليب القرآن ط دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٧٨ ، البديع فى ضوء أساليب القرآن ط سنة ١٩٧٩ ، دار المعارف ، القاهرة .

فى ضوء أساليب القرآن"، و"البديع فى ضوء أساليب القرآن" ، فإننا لم نجد فى الواقع تطبيقا عمليا لذلك ، لأنه لم يخرج عما أثر فى كتب البلاغة التى أُلفت حديثا ، وهى بدورها مأخوذة مما ورد عند السلف ، كما كان اهتمامه أقرب إلى القياس منه إلى البحث عن القيمة الفنية البلاغية وأثرها فى التعبير.

وفى نفس الوقت وجدنا الدكتور محمد أبو موسى فى كتابه دلالات التراكيب[١] يدعم اتجاه عبد القاهر الجرجانى فى البحث وراء الدلالات ومستوياتها التعبيرية ،والمعانى الثانوية ، لا سيما وهو يحلل بعض آى القرآن الكريم أو أبيات من عيون الشعر العربى،لكنه فى نفس الوقت كان يولى الأصول النظرية البلاغية ، وما حولها من خلافات اهتماما كبيرا ، قد يطغى على اهتمامه بالجوانب الدلالية ، مما قد يوقع القارىء فى اللبس،وكم كنا نود أن تستمر عنايته بالجوانب الدلالية فى ضوء القضايا البلاغية ، لأن هذا هو فعلا ما نحن بحاجة إليه عندما نوظف قضايا البلاغة فى فهم النصوص ، لكنه أيضا لم يحاول أن يتناول عملا أدبيا كاملا فى ضوء قضايا البلاغة .. وهو ما نزال نفتقر إليه بشدة ..

وربما كانت محاولة الدكتور عفت الشرقاوى فى كتابه بلاغة العطف فى القرآن الكريم[٢] قد حاولت أن تقترب من هذا الهدف ، وهو يتناول بعض أساليب العطف فى القرآن

---

(١) د. محمد أبو موسى دلالات التراكيب دراسة بلاغية، ط ١ مكتبة وهبة القاهرة ١٣٩٩ هـ - ٧٩ م.

(٢) د. عفت الشرقاوى ، بلاغة العطف فى القرآن الكريم ، دراسة أسلوبية دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت سنة ١٩٨١.

الكريم باحثا عن جوانبها الدلالية ، مستفيدا من عبدالقاهر فكرا ومنهجا ، وإن انتقد عبدالقاهر فى كونه لم يحاول أن ينظر إلى النص نظرة كلية فى ضوء قيم البلاغة العربية وهو ما لم يفعله هو أيضا .

• • • •

ولعله من الملائم هنا أن نشير إلى محاولتين تعتبران من المحاولات الرائدة فى هذا المجال ، وان كان يغلب عليهما جانب المعيارية والقياس والتعليمية والتقريرية ، أما أولاهما فهو كتاب " جواهر البلاغة "[١] للاستاذ محمد هاشم ، ويبدو أن مفهوم كلمة جواهر بمعنى أصول كان يسيطر على المؤلف ، بل لسنا مبالغين إذ قلنا إنه لايتجاوز جمع الأصول وصياغة البلاغة على هيئة قاعدة ومثال يوضحها أو يدل عليها فقط ، وبذلك فهى محاولة تعين على اتجاه المعيارية المجردة من أى اهتمام بالقيمة الفنية للفكرة البلاغية ، هذا برغم أنه لم يترك أية فكرة أو قيمة بلاغية دون أن يصوغها على هيئة قاعدة ومثال دال عليها .

وفى نفس هذا الاتجاه المعيارى كانت محاولة الدكتور بكرى شيخ أمين " البلاغة العربية فى ثوبها الجديد " علم المعانى "[٢] ، وإن كان هناك من ميزة لهذه المحاولة فهى أنها تخلصت تماما من أية مشكلة او خلافات حول قضية بلاغية ، كما اتجهت نحو التبسيط الشديد جدا ، بحيث إنها جعلت البلاغة العربية فى مستوى مدرسى ، يلائم طلاب

---

(١) احمد الهاشمى ، جواهر البلاغة فى المعانى والبيان والبديع ط دار احياء التراث العربى بيروت .

(٢) د. بكرى شيخ أمين ، البلاغة العربية فى ثوبها الجديد علم المعانى ، ج ١ توزيع دار العلم للملايين بيروت ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م .

المدارس لا الجامعات ، وهذا فى حد ذاته إنجاز لا بأس به ، وإن كان يبعدنا عن بغيتنا التى نتمناها، ألا وهى التوظيف الفنى لقيم البلاغة العربية ، والتعامل بهامع فنون القول المختلفة تعاملا كليا، يكشف لنا عن بناء النص وأبعاده ، ويجلى لنا مستوياته التعبيرية وأنظمته الدلالية ، وبصورة تثرى النصوص ذاتها ، وتجعل هذا التقديم لها فى حد ذاته منبعا مستقلا للمتعة الفنية .

* * * *

وثمة محاولة طريفة قام بها فى هذا المجال الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى والدكتور عبد العزيز شرف[١] وهى " نحو بلاغة جديدة" وعماد هذه المحاولة المزج بين البلاغة العربية والإعلام ، وإذا كان أول المؤلفين على صلة وثيقة بالبلاغة وقضاياها، وثانيهما على صلة وثيقة بالإعلام وقضاياه الفكرية ، فقد ظلت هذه الثنائية او الازدواجية معلما واضحا لكل فصل من فصول هذا الكتاب ، بحيث إنك تجد فصلا على ولاء كامل لقيم البلاغة العربية ، يتلوه فصل كامل على ولاء لمبادىء علم الإعلام ، وبين هذا وذاك تتراءى ملامح اتصالات عابرة ، تتمثل فى محاولة استفادة الإعلام من بعض الأفكار البلاغية ، أو محاولة توجيه قضايا الفكر الإعلامى لتستفيد من قيم البلاغة العربية فى تحقيق التواصل بين المرسل والمستقبل ، ومن ثم فهذه المحاولة اتجاه نحو توظيف جديد لقيم البلاغة العربية ، نتمنى أن يعمق وينتشر لتعميم التوظيف الفنى لقيم البلاغة العربية فى مختلف مجالات فنون القول.

* * *

وتعد محاولة الدكتور شفيع السيد فى كتابه "التعبير

---

(١) د. محمد عبد المنعم خفاجى ، ود.عبد العزيز شرف ، نحو بلاغة جديدة ، مكتبة غريب الفجالة ، مصر.

البيانى رؤية بلاغية نقدية[١] من المحاولات المخلصة للتراث، حيث حاول أن يوظف قيم البلاغة توظيفا عصريا ، من خلال أمثلته الكثيرة من الشعر الحديث ، عندما يقرنها بغيرها من الشعر الجيد القديم بعد أن يقدم من آى القرآن ما يوضح الظاهرة البلاغية ، تلك الظاهرة التى تصبح مدخله لتذوق هذه النصوص وفهمها ، ولكنه على ولاء كامل للمنهج المحافظ فى دراسة علم البيان حيث يعرف البلاغة والفصاحة ثم الدلالات فالتشبيه فالمجاز والاستعارة والكناية ، ويتضح اتجاهه الفنى أو توظيفه الفنى لقيم البلاغة العربية بتخلصه من التقسيمات ، وتركيزه على التوظيف الفنى للقيمة ، وفى نفس الوقت يشير إلى بعض النقاط التى يتضح فيها سيطرة المنطق وغيره على البلاغة مما نحا بهذه الأخيرة نحو الجمود والتطرف ، والإهمال للأثر الفنى وهو إذ ينتقد هذه المواضع لا يسرف فى هذا الانتقاد ، ولذلك فقد تناول كثيرا من ظواهر علم البيان على هيئة قضايا فنية ، مما أبعد دراسته كثيرا عن الجمود والمعيارية القاتلة للفن .

وإذا كان هناك من ملحظ على هذه الدراسة فهو هذا الفصل الأخير من هذا الكتاب والذى جعله المؤلف تحت عنوان " الصورة الفنية" ، فقد كنا نود أن يصبح ذلك جزءا ممتزجا بهذه الدراسة ، لكن مجيئه على هذا النحو يجعل القارئ يتصور أن الصور البيانية فى البلاغة العربية التى أولاها المؤلف عنايته خلال الكتاب فى واد ، وأن الصورة بمفهومها الحديث كما تناولها المؤلف نفسه فى هذا الفصل الأخير فى واد آخر، وما اقساه من حكم يدحضه مثلا تناول عبد القاهر الجرجانى فى كتابه " الأسرار" للصورة .(٢)

---

(١) د. شفيع السيد ، التعبير البيانى رؤية بلاغية نقدية ط . مكتبة الشباب ، القاهرة سنة ١٩٧٧م .

(٢) انظر كتابنا الاتجاه النفسى ط مكتبة المعارف ـ الرياض ص ٧٨.

وللدكتور رجاء عيد[١] محاولتان جادتان فى هذا المجال، أما أولاهما فهو كتابه " فى البلاغة العربية"، وثانيتهما " فلسفة البلاغة العربية" ، وفى اعتقادى أن المنهج فيهما واحد، عماده عرض قضايا البلاغة العربية، ثم محاولة تقويمها فى ضوء ما سادها من منطق وأصول وفلسفة، وانتقاد هذه الاتجاهات التى جمدت البلاغة ، وإن ركز فى الثانى على قضايا علم المعانى ، وبرغم أن هذا الحوار مع التراث مفيد، لكنه يجب أن يتجاوز موقف الانتقاد إلى البناء والإصلاح، ومحاولة تقديم الصالح من هذا التراث تقديما عصريا ليستفيد منه أبناؤنا ، وليؤدى دوره فى التأصيل لفكرنا المعاصر، وهو ما نحن بحاجة إليه ، كما فعل نفس المؤلف فى كتابه "المذهب البديعى فى الأدب والنقد" حيث حاول إبراز الأثر الفنى للقيم البلاغية ، نائيا عن المعيارية والتجرد المنطقى الجاف .

٥٥٥٥٥٥

ويزداد اتجاه التطوير نموا نحو الفنية والاهتمام بالبلاغة كقيمة تعبيرية ، بمحاولة إخصابها بأفكار الأسلوبية، والمزج بين القيم البلاغية والدراسة الأسلوبية للنصوص .

حقا يمكن لمن يتصل بقيم البلاغة العربية اتصالا وثيقا واعيا ، أن يدرك كثيرا من نقط الالتقاء بين البلاغة والأسلوبية، لا سيما فى علم المعانى ، حيث يهتم بالتراكيب وعلاقاتها ودلالاتها للوصول إلى مستويات المعانى .

وهنا نشير إلى ما أكدناه فى مطالع هذه الدراسة

---

(١) د. رجاء عيد - فى البلاغة العربية - نشر مكتبة الطليعة أسيوط ، وله أيضا : فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور ط . منشأة المعارف الاسكندرية سنة ١٩٧٩م .

وفى غيره ، من أهمية دور اللغة الموظفة فى جلاء القيمه البلاغية وإبرازها الجمالى للفكرة ، وإذا كانت الدراسة الأسلوبية تنصب على اللغة الأدبية التى تمثل التنوع الفردى المتميز فى الأداء، فإن قيم البلاغة يمكن أن تسهم فى هذا المجال بالشىء الكثير ، لا سيما فى مرحلة التحليل للنصوص ، ولقد كان عبد القاهر الجرجانى من الرواد فى هذا الاتجاه فى كتابيه " الدلائل " ،و" الأسرار".

وممن أشاروا إلى هذه الوجهة الأسلوبية فى تناول البلاغة حديثا الدكتور لطفى عبد البديع فى كتابه "التركيب اللغوى للأدب " ، ويزداد هذا الاتجاه وضوحا فى كتاب الدكتور شكرى عياد" الأسلوب " ، ثم تبرز الظاهرة جلية فى كتاب الدكتور محمد عبد المطلب ، "البلاغة والأسلوبية"، حيث تتبع مفهوم الأسلوب عند القدماء : وقد أشار إلى أن البحث فى الإعجاز القرآنى كان من العوامل التى أثرت فى هذا الاتجاه الأسلوبى عند القدماء ، وقد قدم نماذج تكشف عن كيفية تناول البلاغيين القدماء لهذه الفكرة فى مجال التنظير تناولا يبين تطورها لديهم ، ونموها ،وإن كانت لم تصل بعد إلى عمق التناول المعاصر اليوم، وهذا شىء طبيعى ، ثم عرض لمفهوم الأسلوبية ، كما أشار إلى بعض جوانبها وتطوراتها ، وبعض معالمها وقيمها، وأخذ يتناول مواطن الالتقاء بين البلاغة والأسلوبية ، حتى انتقل إلى عرض بعض القضايا التى تؤكد وجهة نظره؛ كالعدول والتكرار النمطى ، كما عرض لبعض السياقات كسياق الحذف ، والتقديم والتأخير ، والتعريف والتنكير وينتهى إلى تأكيد الاتصال بين البلاغة والنقد والأسلوبية ، حيث إنها تثرى الأدب وتخصبه ، ومن ثم يجب أن نتسلح بنظرة واسعة فى هذا المجال بحيث تكون اللغة مدخلنا إليه .

---

(١) د. لطفى عبد البديع - التركيب اللغوى للأدب - مكتبة النهضة - القاهرة .

(٢) د. شكرى عياد - الأسلوب - دار العلوم - الرياض .

(٣) د. محمد عبد المطلب - البلاغة والاسلوبية - الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة .

ونأمل أن يسهم هذا الاتجاه فى أن يعود للبلاغة العربية دورها بأبعاده الفنية ، لا سيما إذا تعاونت البحوث والدراسات الحديثة فى هذا المجال .

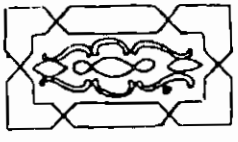

(١) أهم المصادر والمراجع :

أولا: القرآن الكريـــــم .

ثانيا:

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : ـ البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون ط الخانجى .
ـ وهناك طبعة أخرى لدار الكتـــب العلمية بيروت .
ـ الحيـــوان .

أبو عبيدةمعمر بن المثنى: ـ مجاز القرآن .

أبوعلى الحسن بن رشيق القيروانى : ـ العمدة تحقيق محمـود محمد شاكر ط دار الجيل بيروت .

أبو الفرج الأصفهانى : ـ الأغانى ، ط دار الكتب المصرية.

أبوالفرج قدامة بن جعفر: ـ نقد الشعر تحقيق د. محمـــــد عبدالمنعم خفاجى ط ١ نشر الخانجـــى القاهرة .

أبو القاسم الحسن بن بشرالآمدى : ـ الموازنة بين أبى تمام والبحترى تحقيق محمد محيى الديـــن عبدالحميد ، المكتبة العلمية بيروت

أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد الخفاجىالحلبى : ـ سر الفصاحة ، تحقيق عبدالمتعال الصعيدى ط مكتبة ومطبعة محمد على صبيـــح ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩م.

أبوهلال العسكـــرى : ـ الصناعتين تحقيق على محمد البجاوى ومحمد أبوالفضل ابراهيم ط عيســـى البابى الحلبى وشركاه مصر.

أحمد مصطفى المراغى: ـ علوم البلاغة: البيان والمعانى والبديع ، مراجعة وتصحيح أمين النواوى ط ٦ المكتبة التجارية القاهرة ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢م.

أحمد الهاشمى : ـ جواهر البلاغة فى المعانى والبيان والبديع ط دار إحياء التراث العربى بيروت .

ابن الأثير (ضياء الدين) : المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر.

أرسطو طاليس : الشعر : تحقيق وترجمة د. شكرى محمد عياد نشر دار الكاتب القاهرة ١٣٧٨هـ ١٩٦٧م.

أمين الخولى : البلاغة وعلم النفس بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة مجلد ٤ ج ٢ ١٩٣٩م.

بدوى طبانة (دكتور) : البيان العربى ط مكتبة الانجلو المصرية ١٣٧٥ ـ ١٩٥٦.

ـ علم البيان ط مكتبة الانجلو المصرية ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م.

بكرى شيخ أمين (دكتور) البلاغة العربية فى ثوبها الجديد ج ١ علم المعانى دار العلم للملايين بيروت ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م.

ابن تيمية : الإيمان .

ثعلب : قواعد الشعر

جار الله محمود الزمخشرى: تفسير الكشاف .

الجهشيارى : الوزراء والكتاب ط الحلبى القاهرة.

حازم القرطاجنى : منهاج البلغاء وسراج الأدباء تحقيق د. محمد الحبيب بن خوجة تونس ١٩٦٦م

درويش الجندى(دكتور): علم المعانى ، مطبعة نهضة مصر.
رجاء عيد(دكتور) : - فلسفة البلاغة العربية بين التقنية والتطور ط مكتبة منشأة المعارف الإسكندرية سنة ١٩٧٩م
- فى البلاغة العربية نشر مكتبة الطليعة أسيوط .
روبرت همفرى : تيار الوعى فى الرواية الحديثة ترجمة د. محمود الربيعى ط دار المعارف مصر .
الزمخشرى : الكشاف ، المكتبة التجارية ط ١ سنة ١٩٥٤.
سراج الدين أبويعقوب السكاكى : مفتاح العلوم ط عيسى البابى الحلبى ١٣٥٦م/ ١٩٣٧هـ .
سعد أبو الرضا(دكتور): - الكلمة والبناء الدرامى ط دار الفكر العربى القاهرة ١٩٨١م.
- الاتجاه النفسى فى نقد الشعر ط مكتبة المعارف الرياض ١٤٠١ - ١٩٨١
سيبويه : الكتاب تحقيق وشرح عبد السلام هارون دار القلم ١٩٦٦.
سيد نوفل (دكتور): البلاغة العربية فى دور نشأتها.
شفيع السيد (دكتور): التعبير البيانى رؤية بلاغية نقدية ط مكتبة الشباب القاهرة سنة ١٩٧٧.
شكرى عياد (دكتور): الأسلوب ط مكتبة دار العلوم ، الرياض .
شوقى ضيف (دكتور) : البلاغة تطور وتاريخ نشر دار المعارف القاهرة .
عبد العزيز عتيق(دكتور): علم المعانى مكتبة النهضة ،بيروت
عبد الفتاح لاشين(دكتور): المعانى فى ضوء أساليب القرآن الكريم ط دار المعارف ،القاهرة سنة ١٩٧٩ .
- البديع فى ضوء أساليب القرآن الكريم ط دار المعارف .

عبدالقاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز تصحيح السيد محمد رشيد رضا ط ٦ مكتبة صبيح .

عبدالله بن المعتز : البديع نشر وتعليق كروتشقوفسكى.

عفت الشرقاوى(دكتور): بلاغة العطف فى القرآن الكريم دراسة أسلوبية ، دار النهضة للطباعة والنشر بيروت ١٩٨١م .

على الجندى : فن الجناس ط دار الفكر العربى بالقاهرة .

على بن عبدالعزيز الجرجانى: الوساطة بين المتنبى وخصومه تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعلى محمد البجاوى ط عيسى البابى الحلبى مصر .

الفخر الرازى : نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز.

القاضى أبو الحسن عبدالجبار: المغنى ط وزارة الثقافة بمصر ١٩٦٥م.

ابن قتيبة : - تأويل مشكل القرآن تحقيق السيد أحمد صقر ، إحياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٥٤.

- الشعر والشعراء.

كلينيث بروكس : روائع التراجيديا فى أدب الغرب ترجمة د. محمود السمرة وآخرين .

كوثر عبدالسلام البحيرى(دكتور) : الاتجاهات الحديثة للنقد الأدبى.

لطفى عبد البديع : التركيب اللغوى للأدب ، مكتبة النهضة القاهرة سنة ١٩٧٠.

ليون إيدل : القصة السيكلوجية ترجمة د. محمود السمرة ، نشر المكتبة الأهلية بيروت ١٩٥٩.

مازن المبارك(دكتور): الموجز فى تاريخ البلاغة العربية .

محمد أبو موسى (دكتور): دلالات التراكيب دراسة بلاغية ط مكتبة وهبه ، القاهرة سنة ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩م.

محمد بن أحمد بن طباطبا العلوى : عيار الشعر تحقيق وتعليق د. طه الحاجرى ود. محمد زغلول سلام ط المكتبة التجارية ١٩٥٦ ، القاهرة.

محمد بن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء تحقيق محمود محمد شاكر ط المدنى ، القاهرة سنة ١٩٧٤.

محمد بن عبد الرحمن الخطيب القزوينى : تلخيص المفتاح ط مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م.

محمد عبد المطلب (دكتور): البلاغة والأسلوبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٤

محمد عبد المنعم خفاجى(دكتور): نحو بلاغة جديدة بالاشتراك مع د. عبد العزيز شرف ط مكتبة غريب القاهرة.

محمد غنيمى هلال (دكتور): فى النقد التطبيقى المقارن ، - النقد الأدبى الحديث دار النهضة العربية سنة ١٩٦٩.

محمد مندور(دكتور) : النقد المنهجى عند العرب ، دار نهضة مصر القاهرة.

نعمان عاشور : مسرح نعمان عاشور ج ١.

ثالثا: دوريـــــات:

١ ـ مجلة الفيصل العدد ٣٦ أبريل / مايو سنة ٨٠ ١٩٠

٢ ـ مجلة الفيصل العدد ٧٢ جمادى الاخرة السنة السادسة سنة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م٠

٣ ـ المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، الكويت ، العدد الرابع ، المجلد الأول ١٩٨١٠

فهرس الأعـــــلام

(ف)

إبراهيم الصولـــى : ١٣٣
إبراهيم محمد بن محمد بن عربشاه عصام الدين الاسفراييني :١٧٥
أبو بكر (رضى الله عنه): ٣١
أبو بكر الصولـــى : ١٦ ، ١٤١ .
أبو تمـــــــام : ٤٠ ، ٨٠ ، ١٢٨ ، ١٣٣
أبو الحسن عبدالجبار (القاضى) ١٤٩ ، ١٥١
أبو الحسن على بن أبى الرجال: ١٢٣ .
أبو زيد الأنصـــارى: ٦٣
أبو عبادة البحترى : ٣٨ ، ١٢٨ ، ١٣٣.
أبو عبيده معمر بن المثنى : ٤٢ ، ٤٤ ، ٥٧ ، ٦٣
أبو العتاهيـــة : ٣٩ ، ٤٠
أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: ١٠ ، ١٦ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٣٠ ، ١٤٩.
أبو العلاء المعـرى : ٢٥.
أبو على الحسن بن رشيق القيروانى : ١٣ ، ١٦ ، ٤٣ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦.
أبو الفرج الأصفهانى : ٣٢.
أبو الفرج قدامة بن جعفر: ١٢ ، ٣٢ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٨٤ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٣٤.
أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى : ١٦ ، ٥٨ .

أبو محمد عبدالله بن سنان الخفاجي الحلبي : ٥٨ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٧٠.

أبو نواس : ٩٤.

أبو هاشم الجبائي : ١٤٩.

أبو هلال العسكري : ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٦ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٩٨ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٣١ .

أحمد العسكري : ١٢٠.

أحمد مصطفى المراغي : ٤١ ، ١٧٩ .

الأخفش : ٦٣.

أرسطو : ١١ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٨٠ ، ٩٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٩.

إسحاق بن حنين : ٥٠

الأصمعي : ٤٢ ، ٤٣ ، ٦٣ ، ٨٠ ، ٨٢.

إمرؤ القيس : ٣٩ ، ١٢٥.

أمين الخولي : ١٨٠

الأعشى : ٩٥

أوديب : ٢٣

أوس بن حجر : ٣٠ ، ١٠٩

(ب)

الباقلاني : ١٢٠ ، ١٤٩.

بدوى طبانة (دكتور) : ٢٩ ، ١٨٠

بشار بن برد : ٣٨ ، ٣٩ ، ١٢٨ ، ١٣٦.

بشر بن المعتمر : ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١١٥ ، ١٢٨ ، ١٢٩.

بدر الدين محمد بن جمال الدين بن مالك الطائى : ١٦٩
بكر بن النطـــاح: ٩٤
بكرى شيخ أميـــن : ١٨٣
بوالـــــو : ١١
بهله الهندى (طبيب): ٦٩

(ت)

توفيق الفيل (دكتور): ٤٩
ابن تيميـــــة : ٤٢

(ث)

ثعلـــــب : ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٨ ، ٧٩٠

(ج)

جارالله محمود الزمخشرى: ١٠ ، ٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧٣٠
جريـــــر : ٣٥ ، ١٢٥
الجهشيـــــارى : ٣٧
جعفر بن يحيى البرمكى: ٣٠ ، ٣٨
جلال الدين السيوطى : ١٧٥
ابن جنـــــى : ١٤٠
الجوهـــــرى : ١٧٣

(ح)

الحاتمـــــى : ١٣ ، ١٣١٠
حازم القرطاجنى (أبو الحسن): ٥٢ ، ٥٣ ، ١٦٩٠
الحجـــــاج : ٣٢
الحسن البصـــرى: ٦٣
الحطيئـــــة : ٣٠ ، ١٢٥٠

(خ)

ابن خلـــــدون : ١٠ ، ١١

الخليل بن أحمـد: ٤١ ، ٨٠ ، ١٢٨.

(د)

درويش الجندى (دكتور): ١٨١

(ذ)

ذو الرمـــــة: ٣٤ ، ١٢٥.

(ر)

رجاء عيد(دكتور): ٦٨ - ١٨٦.

الرشيـــــد : ٦٩

الرومانـــــى : ١٢٠ ، ١٢٧ ، ١٤١.

روبرت همفرى : ١٢٩

ابن الرومـــى : ١٣٦

(ز)

الزبير بن بكـــار: ٧٩

زهير بن أبى سلمى: ٣٠ ، ٣٢ ، ١١٦ ، ١٢٣ ، ١٢٥.

زياد بن أبيـــه : ٣٢

زيد بن الحسيـن : ٣٢

(س)

سحبان وائـــل : ٣٢

سراج الدين أبو يعقوب السكاكى : ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٦ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٨٠ ، ١٢٠ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤.

سعد الدين مسعود بن عمر التفتازانى: ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٤.

ابن السكيـــت : ٧٩

ابن ســـــلام: ١٦ ، ١٢٥ ، ١٢٦.

سلم الخاسر : ٣٩

سيبويه : ٤١ ، ٥٧
سيد نوفل (دكتور): ١٠ ، ٢٩ ، ٧٦
السيد الشريف الجرجانى: ١٧٤

(ش)

ابن شبرمة: ٣٤
شفيع السيد(دكتور) ١٨٤ ، ١٨٥
شكرى عياد (دكتور): ٤٩ ، ٥٣ ، ١٨٧
شوقى ضيف (دكتور): ١٠ ، ١٣ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٥٠ ، ٧٦ ، ١٠٢ ، ١٠٣

(ص)

صالح بن عبد القدوس : ٨١
صحار العبدى : ٣٢

(ض)

الضبى (النحوى): ٧٩
ضياء الدين بن الاثير: ١٦ ، ٤٠ ، ٥٩

(ط)

طه الحاجرى : ١٣ ، ٨٩
طه حسين (دكتور): ٤٩ ، ٥١ ، ١٠٢

(ع)

عبد الحكيم بن شمس الدين السيالكوتى الهندى : ١٧٥
عبد السلام هارون: ٣٢
عبده عبد العزيز قليقلة (دكتور): ١٤
عبد العزيز عتيق (دكتور): ١٢ ، ١٨١

عبد الفتاح لاشين(دكتور): ١٨١
عبد القاهر الجرجانى : ١٠، ١٤ ، ١٦ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٩٧، ١٢٤ ،
١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،
١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،
١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠
١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ .
عبد الله بن قيس الرقيات : ٣٣
عبد الله بن المعتز : ١٠ ، ١٦ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٥١ ، ٥٨ ، ٧٤ ، ٧٩
٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٠١ ، ١٠٥ ،
١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٣١
١٣٢.
عبد الله بن المقفع : ٣٦ ، ٣٨
عبد المتعال الصعيدى: ١٣٩
عبد الملك بن مروان: ٣٣
عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكانى الدمشقى : ١٦٩
عفت الشرقاوى (دكتور) ١٨٢.
على بن أبى طالب(رضى الله عنه) ٣٢.
على الجندى : ١٧٩
على بن عبد العزيز الجرجانى(القاضى) ١٦ ، ٥٨ ، ١٣٦ ، ١٤١ .
على محمد البجاوى : ١١٣.
على بن محمود بن نصر: ٩٥
عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ٣٢ ، ١١٦ ، ١٢٥.
عمر بن لجأ : ٣٤.

(ف)

فخر الدين الرازى : ٥٩ ، ١٦٦.
الفراء: ٤١ ، ٤٢ ، ٥٧.
الفرزدق : ٣٥ ، ١٢٥.

(ق)

ابن قـــــادم : ٧٩

ابن قتيبـــــة : ١٦ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٨ ، ٩٦ ، ٩٨ .

القزاز القيروانى: ١٦

ابن قيم الجوزية : ١٦٩

(ك)

كافـــــور : ١٥٨

الكنـــــدى : ٤٩

كوثر عبد السلام(دكتور)١١

كلينيث بروكـــس : ٠٢٣

كوليـــــردج : ٠٥٣

(ل)

لطفى عبد البديع (دكتور) ١٨٧

ليونيل إيـــــدل : ١٢٩

(م)

مازن المبارك (دكتور) ٠١٧

المبـــــرد : ١٦ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٧٩ ، ٠١٧٣

متى بن يونـــس : ٥٠

محمد أبو الفضل ابراهيم: ١١٣

محمد أبوموسى(دكتور): ١٨٢

محمد بن أحمد بن طباطبا العلوى : ١٣ ، ١٦ ، ٥٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ٠١٣١

محمد زغلول سلام (دكتور): ١٣ ، ٠٨٩

محمد بن عبد الرحمن الخطيب القزوينى : ١٦ ، ٥٩ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ٠١٧٤

محمد عبد الملك الزيات : ٠١٣٣

محمد بن عبد الله (رسول الله صلى الله عليه وسلم): ٢٩ ، ٣١ ، ١٠٥ ، ١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٥١.
محمد عبد المنعم خفاجي (دكتور): ١٠ ، ٧٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٨٤.
محمد عبد المطلب : ١٨٧
محمد بن عرفه الدسوقى : ١٧٥.
محمد محيى الدين عبد الحميد: ١٢٣.
محمد عيسى منون : ١٠١
محمد غنيمى هلال (دكتور): ١٥ ، ٩٠ ، ١١٧.
محمد كمال مصطفى : ١٠١ ، ١٢٦.
محمد بن محمد بن عمرو التنوخى : ١
محمد مندور (دكتور): ١٠ ، ١١٥ ، ١١٧.
محمد هاشم : ١٨٣.
محمود الربيعى (دكتور): ١٢٩
محمود السمرة : ٢٣ ، ١٢٩.
محمود محمد شاكر : ١٢٥.
المرزبانى : ٩٨
مسكين الدارمى : ١٢٤
مسلم بن الوليد : ٤٠ ، ٨٢
مصعب بن الزبير: ٣٣
معاوية بن أبى سفيان : ٣٢ ، ٩٥
معمر أبى الاشعث : ٦٩
ابن منذر : ٣٩

(ن)

النابغة الذبيانى: ٣٠ ، ١٢٤ ، ١٢٥
النظام : ٦٣
نعمان عاشور : ٢٣

(هـ)

ابن هبيرة الكوفى : ٧٩

(و)

واصل بن عطـــــاء: ٦٥ ، ٦٦
الوليد بن المغيـرة: ٢٩

(ى)

يحيى بن حمزة العلوى اليمنى : ١٦٩
يحيى بنخالد البرمكى : ٦٩
يعرب بن قحطـــان : ١٣٥
ابن يعقوب المغربى : ١٧٥

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة	٣
٢	بين البلاغة والنقد الأدبى	٧
٣	البلاغة العربية قيمة متجددة	١٩
٤	فى نشأة البلاغة وتطورها	٢٧
٥	أصالة البلاغة العربية	٤٧
٦	رحلة البلاغة العربية عبرمصادرها الأساسية .	٥٥
٧	البلاغة العملية فى كتاب "البيان والتبيين " للجاحظ	٦١
٨	أصول القيم البلاغية فى كتاب " البديع "لابن المعتز"	٧٧
٩	مقومات الفن فى كتاب" عيار الشعر" لابن طباطبا".....	٨٧
١٠	"نقد الشعر" لقدامة بن جعفر والأثر الهلينى فيه	٩٩
١١	التصور المعيارى للفن فى كتاب" الصناعتين" للعسكرى	١١١
١٢	شمولية النظرة فى كتاب" العمدة "لابن رشيق"...	١٢١
١٣	الرؤية البلاغية للفن فى كتاب" سر الفصاحة" للخفاجى	١٣٧
١٤	الخصائص الموضوعية للإعجاز القرآنى فى كتاب " دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى".....	١٤٥
١٥	موقف الزمخشرى فى تفسيره" الكشاف ".....	١٦١
١٦	تجرد البلاغة العربية للمعيارية	١٦٥
١٧	نماذج للبحث البلاغى اليوم	١٧٧
١٨	أهم المصادر والمراجع	١٨٩
١٩	فهرس الأعلام الذين وردت أسماؤهم بالكتاب .	١٩٥

رقم الايداع بدار الكتب المصرية
٨٤ / ٤٦٩١
شركة الطوبجى للطباعه
٧ شارع سامى - لاظوغلـــــى
ت : ٣٢٠٨٩